نحو مسرح إسلامي معاصر (٨)

التحقيق
(مسرحية ذات أربعة فصول)

د. عماد الدين خليل

التحقيق

(مسرحية ذات أربعة فصول)

بسم الله الرحمن الرحيم

د. عماد الدين خليل

الإهداء

إلى أحفاد فرديناند وايزابيلا في أوربا وأمريكا

في الزمن السيء الذي يرمى فيه المسلمون ، كذباً وزوراً ، بداء الغرب المزمن : الإرهاب ، واغتيال الحرية ، وذبح حقوق الآخر ، وسحق المغلوب ..

ليس ثمة أفضل من إعادة فتح ملفّات التاريخ لكي يرى الغربيون بأم أعينهم من هو الإرهابي في هذا العالم ، ولكي يستعيد المسلمون المنهزمون الثقة بالقيم الإنسانية النبيلة التي جاء دينهم العظيم لكي يحميها من الاغتيال.

شخوص المسرحية

إيزابيلا : ملكة قشتالة.

فرديناند : ملك أرغون .. (تزوج من ايزابيلا عام ٨٧٤هـ-/١٤٦٩م وتمّ اتحاد المملكتين).

الكاردينال خمنيث : مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية ، والمسؤول العام عن محاكم التحقيق.

الدون ديجا ديسا : من كبار الأحبار والمحقق العام لديوان التحقيق.

صالح بن السائب البّياز : أحد كبار الملاّك في غرناطة.

هاشم : ابنه ، وأحد قادة الثورة في جبال البشرات.

أبو اليقظان : الضمير ، أو الوجه الآخر لصالح بن السائب.

الأسقف راميرو بدرو : أحد كبار المحقّقين.

كونت تنديا : القائد والحاكم العام لغرناطة.

الأب هرناندو دي تلافيرا : أسقف غرناطة.

فرانسس خوسيه : أستاذ الرياضيات في جامعة هنارس الإسبانية.

حراس ، ثوار ، مطارنة ، قسس ، متهمون ، جماهير الناس ..

الفصل الأول

المشهد الأول الزمن : ٩٠٥ هـ/١٤٩٩م

المكان : " البهو الملكي في أرغون : صالة فارهة ذات نوافذ مرتفعة تكاد حافاتها العليا تبلغ السقف ، وقد أسدلت عليها ستائر القطيفة الحمراء ..
كرسيا العرش يتصدّران الصالة ، بينما تمتد المقاعد الوثيرة المذهبة ذات اليمين وذات الشمال .. في الوسط منضدة مرمرية كبيرة وضعت فوقها أكداس من السجلات بجوار عدد من الأصص التي كادت زهورها تذبل ..
الملك يجلس على أريكة بعيداً عن العرش في حالة استرخاء وقد وضع التاج عن رأسه جانباً .. تدخل إيزابيلا بالتاج المرصّع والملابس الملكية "..

إيزابيلا : عمتَ صباحاً أيها الملك ..

فرديناند : (وهو يحاول كتم تثاؤبه) عمتِ صباحاً أيتها الملكة ..

إيزابيلا : (وهي تهرع إلى إحدى النوافذ وتسحب الستارة لكي يدخل الضوء) جئتك على غير المعتاد ..

فرديناند : (محدّقاً في الأرض) أعرف !

إيزابيلا : (تجلس إلى جواره) كان يمكن أن تجدني وقد سبقتك إلى البهو ..

فرديناند : (وهو يبتعد قليلاً لكي يترك فسحة بينه وبين زوجه) أظنها المشاكل الأخيرة ..

إيزابيلا : (بدهشة) مشاكل ؟ انك تهوّن الأمور كثيراً أيها الملك !

فرديناند : أظنك ستتحدثين عن انتفاضة حي البيازين في غرناطة .. أليس كذلك ؟ لقد تمّ سحقها يا امرأة وانتهى الأمر ..

إيزابيلا : (بانفعال مكبوت) كلا .. إنه لم ينته يا رجل !

فرديناند : كيف ؟ لقد ..

إيزابيلا : (مقاطعة) أخشى أن يدفعك الوهم إلى تصوّر أن الأوضاع قد استقرّت نهائياً لصالح المملكة ..

فرديناند : لست ساذجاً إلى هذا الحدّ .. ولكن ..

إيزابيلا : (مستمرة) فها هم قادة التمرّد في حيّ البيازين ينسحبون إلى جبال البشرات ويعلنون عصيانهم هناك بحجة الخوف من التنكيل بهم ومطالبتهم بدم المفوّض الذي قتلوه في بدء الأحداث ..

فرديناند : كم يبلغ عددهم ؟

إيزابيلا : أربعون رجلاً كانوا قد أطلقوا على أنفسهم " الحكومة المنتخبة " (تضحك).

فرديناند : (وهو يسترخي على الأريكة قليلاً) هذا لا يعني شيئاً ..

إيزابيلا : ولكنهم قد يشعلون النار هناك .. انها منطقة شديدة الوعورة أيها الملك ..

فرديناند : (باعتداد) سأضربهم بغونثالو إذا اقتضى الأمر .. ولن يفلتوا من قبضتي !

إيزابيلا : (بتردّد) ولكن ..

فرديناند : (مقاطعاً) ها .. لقد تذكرت .. أليسوا هم الذين بعثوا الكونت دي تنديا يحمل مطاليبهم ، أو ما سموّه شروط انهاء الانتفاضة ؟

إيزابيلا : بالضبط

فرديناند : إذا لم تخطئني الذاكرة فانهم طالبوا بالحدّ مما أسموه اضطهاد أهل غرناطة .. وربما .. لا أتذكر تماماً .. إعادة الكاردينال خمنيث إلى اشبيلية .. تصوّري كيف أن المهزوم يفرض شروطه على الغالب .. أي زمن هذا ؟ (يضحك).

إيزابيلا : ولذلك ضربنا بعروضهم عرض الحائط رغم أن ذلك أزعج الكونت دي تنديا!

فرديناند : يمكن أن أضحّي بالكونت .. وبكل كونتات اسبانيا إذا اقتضى الأمر .. ولكنني لن أفرّط بالكاردينال ..

إيزابيلا : انني معك في هذا .. ان اللحظة التاريخية يصنعها الآن خمنيث .. وعلى يديه سيتقرّر مصير اسبانيا ..

فرديناند : (متثائباً) ألم يكن الكونت دي تنديا يدرك ذلك ؟

إيزابيلا : (متثائبة هي الأخرى) يقول ان ذلك من أجل اسبانيا نفسها .. انها محاولة لمنع الحرائق التي تؤذن بالاشتعال ..

فرديناند : هل تعتقدين ذلك ؟

إيزابيلا : (تعتدل قليلاً) لقد اقتحمنا غرناطة نفسها ، آخر معاقلهم ، فهل يستعصي على العرش شيء بعد ذلك ؟

فرديناند : هذا هو رأيي بالضبط .. ثم ..

إيزابيلا : (مقاطعة) ومع ذلك فان هذه الشوكة لا تزال تحزّ جنبي أيها الملك (تشير إلى الجنوب) انها على مرمى حجر من غرناطة ..

فرديناند : سنرسل إليهم جيشاً يؤّدبهم ويستأصل شأفتهم كي لا يعودوا لمثلها كرة أخرى!

إيزابيلا : هذا وحده لا يكفي ..

فرديناند : (ينهض قائماً) دعينا من الألقاب يا إيزابيلا وقولي ماذا تريدين على وجه التحديد !

إيزابيلا : استئصال الجذور يا فرديناند .. فما دامت موغلة في الأرض الإسبانية فإنها ستظل تنبت الشوك والحسك الذي يخزّ جنوبنا .. وها أنت ذا قد رأيت بأم عينيك .. فعبر فترة قصيرة اشتعلت ثورتهم في قلب غرناطة .. ثم ما لبثوا أن أعلنوا عصيانهم هناك في جبال الثلج .. على بعد خطوات ..

فرديناند : (وهو يذرع الصالة) استئصال الجذور .. هذا صحيح .. ولكننا لم نأل جهداً في انتزاعها من اسبانيا كلّها .. والذي تبقّى لم يعد يشكل خطراً على مصير المملكة والكنيسة (يتوقف قليلاً) إنهما قلعتان شامختان ترتفعان في اسبانيا ، ولن يكون بمقدور حفنة من المسلمين أن تنال منهما ..

إيزابيلا : (تعود إلى استرخائها على الأريكة) بمجرد أن تمعن النظر فيما يجري فانك ستدرك كيف أنهم ينالون منهما .. بل ..

فرديناند : (بانفعال) كنت دائماً أنظر جيداً يا إيزابيلا .. ومن خلال هذه الرؤية الواضحة كحدّ السيف تمكنت من استعادة ملك الآباء والأجداد .. وها هي ذي غرناطة التي لم يمض على استردادها ثماني سنوات ، تشهد على ذلك ..

إيزابيلا : (بانفعال هي الأخرى) بدون قشتالة ما كان بمقدورك أن تفعل شيئاً ..

فرديناند : (متراجعاً بعض الشيء) لسنا الآن بصدد المزايدات يا إيزابيلا.

إيزابيلا : (متراجعة هي الأخرى) هذا ما أردت أن أقوله ..

فرديناند : (كمن يتذكر) من الذي دعا الكاردينال خمنيث دي سنسيروس لكي يذهب إلى غرناطة ويتولى الإشراف على لجان التنصير هناك ؟ من الذي ولاّه رئاسة محاكم التحقيق في اسبانيا كلها ؟ يكفي أنه يحظى بثقة البابا ..

إيزابيلا : (باعتداد) وبثقتي أبها الملك !

فرديناند : (مجاملاً) بكل تأكيد .. فان البابا وحده لا يكفي !

إيزابيلا : إنه يملك قدرات مدهشة يا فرديناند ، لقد استطاع بالفعل تنصير الآلاف من المسلمين ..

فرديناند : لنكن واقعيين يا إيزابيلا .. فان الشائعات قد لا تعكس الأوضاع الجارية كالمرآة .. وعلى أية حال فان المبالغات يجب ألاّ تخدعنا ..

إيزابيلا : ها نحن ذا نلتقي .. وهذا ما جئت من أجله ..

فرديناند : (مستمراً) لقد جمع فقهاء المدينة وحاصرهم بالوعد والوعيد لكي يجلبهم إلى حظيرة الكنيسة ولكنهم استعصوا عليه ، فأغرى كبيرهم علّه يصدر فتوى بضرورة التخلّي عن الإسلام ، فرفض .. فصبّ عليه جام غضبه ووضعه لعدة أيام تحت طائلة التعذيب والجوع .. إنه في هذه المسائل لا يجارى يا إيزابيلا ..

إيزابيلا : العبرة بالنتائج يا فرديناند .. لقد صدرت الفتوى في نهاية الأمر على لسان الفقيه الكبير !

فرديناند : (مع نفسه) لقد عرف الكاردينال كيف يزيّف الفتوى .. إنه في هذه المسائل أيضاً لا يجارى !

إيزابيلا : ماذا أيها الملك ؟

فرديناند : لا شيء .. ولكن ألا ترين معي أن ما يسمّيه الموريسكيون شعرة معاوية أكثر فاعلية في تحقيق أهدافنا ؟

إيزابيلا : هم يقولون أيضاً في أشعارهم أن السيف أكثر جدوى من الكلمات.

فرديناند : لا أقصد هذا بالضبط .. وأنت تعرفين أكثر من غيرك كيف أن حدّ السيف هذا كان في معظم الأحيان الحكم بيني وبينهم .. ولكن ثمة لحظات تاريخية، ومن أجل تجاوز ردود الأفعال ، وربما التعرّض لخسائر غير ضرورية ، يتحتم أن نرخي قليلاً .. فها أنت ذي ترين كيف أن إلحاح الكاردينال دفع أكثرية المسلمين الكفرة في غرناطة إلى التشبث أكثر بدين آبائهم وأجدادهم .. ولم يكن هذا ضرورياً أيتها الملكة !

إيزابيلا : ولكن ..

فرديناند : (مقاطعاً) لقد كانت انتفاضة حيّ البيازين واحدة من الثمار المرة لسياسات خمنيث .. وقد كلّفتنا كثيراً .. وها هي ذي ثمرة العلقم الأخرى : ثورة البشرات .. ولا ندري كم ستكلفنا ..

إيزابيلا : (ترجع ثانية لكي تستلقي على الأريكة) تمرّد حي البيازين قد سحق .. أليس كذلك ؟ وسيلحق به عصيان العصابات وقطاع الطرق هناك .. والمسألة

مسألة وقت ، فليس ثمة ما يدعو للقلق ..

فرديناند : كنت أقول دائماً أن الرجل ، في مسائل السياسة ، أبعد نظراً من المرأة ..

إيزابيلا : (تنتصب قليلاً) ليس بالضرورة يا فرديناند.

فرديناند : إنني لا أتحدث عن النتائج الأخيرة ، فهذه مسألة قد تأتي متأخرة بعض الشيء ، وثمة دائماً ما يسبقها : حجم التضحيات التي تأتي بها ، وأنا لا أريد أن أعطي كثيراً في هذا المجال .. لقد قدّمنا ما فيه الكفاية .. نزفنا كثيراً عبر ما يزيد عن الثمانية قرون ، وآن لنا أن نكتفي بالحصاد ..

إيزابيلا : ليس ثمة حصاد دون كدح أو تضحيات ..

فرديناند : هذا صحيح ولن أناقشك فيه .. ولكن هناك وجهاً آخر للمسألة .. هامشاً ما ، يبدو أننا غير متفقين عليه ..

إيزابيلا : مثلاً ؟

فرديناند : إرخاء الحبل بين لحظة وأخرى لحين توفّر الوقت المناسب لتوجيه الضربة التي لا ترحم .. وحينذاك نكون قد كسبنا الوقت وضمنّا النتيجة دون أن نخسر شيئاً ..

إيزابيلا : وإذا كان هناك أي هامش للاحتمال ؟ لحدوث نتائج غير متوقعة ؟ لانكسارٍ خطير قد يعيد عقارب الساعة إلى الوراء ويضعنا مرة أخرى تحت رحمة الكفار ؟! فماذا سنقول حينذاك للرب ؟ وللكنيسة يا حامي حمى النصرانية؟!

فرديناند : أقول لهما : لقد اتخذت وزوجتي المخلصة للرب واليسوع والكنيسة .. والبابا نفسه .. من الإجراءات الصارمة ما فيه الكفاية .. واعتقد أن هذا سيرضيهم ..

إيزابيلا : (بارتياح) بالتأكيد .. فلقد نقل لي الكاردينال خمنيث هذا الرضا ..

فرديناند : ولكنك تعرفين أيضاً ما الذي حدث بعد هذا ..

إيزابيلا : أظنك ستعود للحديث عن عصابات البشرات ..

فرديناند : لقد تمخّضت هذه الإجراءات عن ردّ فعل واسع النطاق فها هم أتباع محمد ينسحبون بالآلاف إلى جبال البشرات ويتخذون من غونجار عند سفوحها قاعدة لعصيانهم ، وينتخبون حكومة تدير شؤونهم !

إيزابيلا : عما قليل ستعرف أيهما أبعد نظراً يا فرديناند الرجل أم المرأة ؟

فرديناند : كيف ؟

إيزابيلا : لقد أُجلي الكفرة باختيارهم عن غرناطة ، وهذا ما كنا ننتظره منذ بدء حملتنا المقدسة ضدهم .. أما عصيان البشرات فلسوف يمنحنا المبرّر لاتخاذ المزيد

من الإجراءات الحازمة ، وبهذا نكون قد ضربنا عصفورين بحجر واحد .. إن قراراً بالتنصير الإجباري ، أو الطرد مثلاً ، سيكون من أكثر القرارات حكمة منذ قدّر لنا أن نتزوّج أيها الملك ..

فرديناند : (يفرك يديه لتغطية هزيمته) أيتها الداهية العجوز !

إيزابيلا : (تبتسم) لم أكن عجوزاً عندما قررت أن تتزوجني !

فرديناند : بكل تأكيد أيتها الملكة الحسناء .. لقد كان زواجاً موفقاً بمعنى الكلمة ، وها نحن نقطف ثماره الشهية !

إيزابيلا : (بدلال) فرديناند !

فرديناند : (يقترب منها ويضع يده على كتفها) نعم يا حبيبتي !

إيزابيلا : أشعر أحياناً بأن مهامنا الرسمية التي لا نهاية لها ، تبعدنا عن أن نحيا حياتنا كرجل وامرأة .. زوج وزوجة .. تصدّنا عن أن نكون كما أراد لنا الله .. لا أدري إن كان من حسن حظنا أم سوئه ، أن يختارنا الرب لقيادة سفينة النصرانية في اسبانيا في هذه اللحظات التاريخية الحاسمة .. آه ..

فرديناند : لقد جرفتنا الدوّامة يا إيزابيلا ، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تعيدنا للوضع الذي قدّر للرجل والمرأة .. ولكن ثمة تعويض أكبر من هذا كله ..

إيزابيلا : أعرف ما الذي تريد أن تقول ..

فرديناند : رضا الرب واليسوع والكنيسة ..

إيزابيلا : (متمّمة) والبابا ..

فرديناند : (يرجع إلى جدّيته) فهل يكفيك هذا أيتها الملكة ؟

إيزابيلا : (كمن يتذكر فجأة) أتدري أيها الملك ؟

فرديناند : ماذا ؟

إيزابيلا : لقد بدأ الكاردينال خمنيث عمله في محاكم التحقيق ..

فرديناند : حقاً ؟ (ثم مستدركاً) يبدو أن الزوج هو آخر من يعلم (يضحك).

إيزابيلا : اننا في سباق مع الزمن يا فرديناند .. اعمل من جهتك ، وسأعمل من جهتي ، فليس ثمة وقت لتبادل العتاب بخصوص الأمور الإجرائية الثانوية .. والمهم هو أن نعمل ، أن نحوّل القرارات بأسرع ما يمكن إلى فعل منظور، فان حركة التاريخ لا ترحم المتباطئين والمتردّدين ..

فرديناند : في هذه المسألة أنا معك تماماً ..

إيزابيلا : كل الأساقفة والرهبان في طول البلاد وعرضها كانوا ينتظرون بصبر نافد

إشارة البدء .. إنه الالتحام الأبدي بين التاج والصليب .. بين العرش والكنيسة .. وبين الرب وأبنائه .. فها هي ذي البداية الحقيقية للتطهير النهائي .. وما هي إلاّ سنوات قلائل وتكون اسبانيا قد عادت إلى نصرانيّتها .. وحينذاك ستتذكر الأجيال التالية مجد قشتالة وأرغون .. الملك والملكة اللذين تم على يديهما الخلاص ، وتحقّق المجد الموعود ..

فرديناند : أما القرون الثمانية التي حكمنا فيها المسلمون فلن تكون في الذاكرة سوى جملة اعتراضية .. مجرد جملة عابرة لم يقدّر لها الاستمرار ..

إيزابيلا : ومن أجل ذلك سمحت لنفسي بأن أمنح خمنيث كل الصلاحيات الممكنة لاستئصال بؤرة الكفر والمروق من اسبانيا .. قلت له بالحرف : أخوّلك أصالة عن نفسي ، ونيابة عن جلالة الملك ، باتخاذ أي أسلوب تراه لتنفيذ الأهداف التي قامت محاكم التحقيق من أجلها .. ومرة أخرى فاننا في سباق مع الزمن يا جلالة الملك ، ولا أعتقد أن التقاليد الإجرائية تقف عائقاً بيني وبينك .. أو بيننا وبين الكنيسة .. لقد أصبح الالتحام أمراً واقعاً ، ولن تكون أعمال الكنيسة بعد اليوم سوى الانعكاس الأمين لإرادة الملك والملكة ..

فرديناند : (محاولاً مداراة موقفه) ها هي ذي علاقتك الوثيقة مع الأساقفة والرهبان في طول البلاد وعرضها تؤتي ثمارها ، وأخشى ما أخشاه أيتها العجوز المتصابية أن يسحبك الكاردينال إلى جواره في محاكم التحقيق ويحكم على جلالة الملك بالوحدة الأبدية (يضحك) ..

إيزابيلا : (ضاحكة هي الأخرى .. تتقدم إليه لكي تقرصه من خدّه) هل تعتقد أيها الشيخ المراهق أن بمقدور قوة في الأرض أن تبعدني عنك ؟

فرديناند : (بسرعة) نعم !

إيزابيلا : (بدهشة) ماذا ؟

فرديناند : الكاردينال خمنيث نفسه الذي يبلغ إعجابه بك حد العشق (يضحكان)

إيزابيلا : (تستعيد ملامح الجدّ) مهما يكن من أمر فلسوف أزور الكاردينال غداً للتداول في الأمر ، واتخاذ الإجراءات المناسبة لزيادة التنسيق بين العرش والكنيسة ..

فرديناند : (يربّت على كتفها) أيتها العجوز الماكرة ..

إيزابيلا : (بشيء من الدلال) لك أن تصفني بما تشاء .. انني على استعداد لأن انقلب رجلاً إذا كانت مصلحة اسبانيا تتطلب ذلك ..

فرديناند : (غامزاً) اسبانيا أم خمنيث ؟

إيزابيلا : (تنظر إلى فضاء البهو) بعد وقت لن يطول ستعرف ما الذي يعنيه خمنيث .. ولكن ..

فرديناند : ماذا ؟

إيزابيلا : لا أحب أن يخرج من مقابلتي خالي الوفاض .. هذه هي الزيارة الأولى له .. ولابد من أن أقدّم له الهدية التي تليق بالمناسبة ..

فرديناند : (يبتسم) بكل تأكيد .. ولكن ماذا ستقدمين إليه ؟ صرّة من الذهب مثلاً ؟ دزينة من الايقونات الفضية يزيّن بها قاعته الفارهة ؟ انني أعرفه جيداً .. رجل يعشق التحف الذهبية والفضية .. يقال ان لديه غرفة مقفلة تضمّ الكثير من روائع المسلمين الفنيّة وأسلابهم في غرناطة .. هذا لا يهمّ الآن .. والمهم أن أعرف الهديّة التي ستناسب المقام .. ومن يدري فلعلّي أختارها لك رغم انك لا تطمئنين لذوقي ..

إيزابيلا : بكل تأكيد

فرديناند : (ينتصب) ماذا ؟

إيزابيلا : لا .. ليس قصدي أبداً هذا الذي يدور في ذهنك ولكنني أريد معاونتك بالفعل ..

فرديناند : (دهشاً) في اختيار هدية الأب ؟

إيزابيلا : دعنا من عالم الأشياء .. أريد ما هو أكبر .. أكبر بكثير من التحف والأموال والهدايا .. إجراءً يقنع الكاردينال بأننا وإياه شيء واحد .. إرادة متوحدة تستهدف حماية اسبانيا من مخاطر استمرار المسلمين فيها ..

فرديناند : مثلاً ؟

إيزابيلا : قرار أو مرسوم جديد يزيد من تضييق الخناق عليهم ، ويمنح الكاردينال مساحة أوسع للحركة والفاعلية ؟

فرديناند : ألم يكف ما أصدرناه من قرارات ومراسيم ؟

إيزابيلا : أبداً .. فان دخان انتفاضة حي البيازين لا يزال يتصاعد في الأفق ورائحته تزكم الأنوف .. وهناك على بعد خطوات جنوبي غرناطة يتجمع المتمردون في البشرات ليثيروا المتاعب ضدّنا .. ولكن هذا كلّه قد لا يعني شيئاً .. المهم هو هذا العدد الكبير من أهالي غرناطة والمدن الأندلسية عموماً ، والذين لا زالوا يصرّون على التمسك بدينهم .. ها هنا يكمن الخطر الحقيقي يا جلالة الملك ..

فرديناند : دعينا من الألقاب والتفاصيل معاً وأوجزي يا امرأة .. فقد بلغتُ حالة الملل

والإعياء من الحديث عن هؤلاء .. قولي ماذا تريدين على وجه التحديد ؟!

إيزابيلا : (تنهض قائمة وتذرع البهو جيئة وذهاباً) الأفضل أن نصدر معاً قراراً يقضي بفرض التنصير على كل الأندلسيين أو ترحيلهم إلى شمال أفريقيا إن رفضوا ذلك .. و

فرديناند : (مقاطعاً) أو ؟

إيزابيلا : ليس ثمة خيار للحلّ الثالث .. فهو من مهام خمنيث ورجاله ..

فرديناند : تولّيْ أنت صياغة القرار يا جلالة الملكة ، وسأبصم عليه بالعشر !

إيزابيلا : (تتنهّد بارتياح) بقيت مسألة أخيرة يا جلالة الملك !

فرديناند : (يضحك) لست أقل منك حرصاً على أن تقدّمي للكاردينال الهدية التي تليق بمقامه (يتثاءب) قولي ..

إيزابيلا : قرار آخر يمنع بموجبه المسلمون القاطنون خارج غرناطة ، من دخولها حتى لا يختلطوا بأهلها فيرفع ذلك روحهم المعنوية ..

فرديناند : (ينهض هو الآخر) لك ما تشائين !

– ستار –

المشهد الثاني الزمن : ٩٠٥هـ/١٤٩٩م

المكان : " البهو الملكي في قشتالة .. تملأ الرسوم الدينية الملونة سقوفه ، وتنتشر التماثيل والايقونات في زواياه وأفاريزه ، يتصدرها في الجهة العليا صليب كبير يغطي المساحة من أقصاها إلى أقصاها ..
تبدو إيزابيلا وهي تجلس خلف منضدة كبيرة تقلّب أكداساً من الملفّات .. يدخل خمنيث " ..

خمنيث : (ينحني قليلاً وتغمر وجهه ابتسامة عريضة) مبارك يومك أيتها الملكة ..

إيزابيلا : (تنهض قائمة وتنحني هي الأخرى) إنه لشرف عظيم أن تطأ قدماك هذا المكان (تشير إلى أريكة مجاورة) يمكنك أن ترتاح يا نيافة الكاردينال.
(يجلس وتجلس في أعقابه مواصلة الحديث)
ثمة مسائل كثيرة وملّحة استدعيت نيافتك للتحدث بها على انفراد .. إن آراءك إذا أردت الحق هي البوصلة التي تحدّد الاتجاه السليم لسياسات المملكة ..

خمنيث : (بارتياح ظاهر) نحن خدّام المملكة ، ولن نألو جهداً في تقديم كل ما من شأنه أن يقودها إلى برّ السلام ..

إيزابيلا : أعتقد انكم قد بدأتم العمل ..

خمنيث : منذ أسابيع وعلى بركة الربّ ..

إيزابيلا : وهل ثمة نتائج ملموسة ؟

خمنيث : (يشير إلى أحد الملفات المبعثرة على المنضدة) إذا شئت فبالأرقام يا جلالة الملكة ..

إيزابيلا : دعنا من هذا الآن ، ولنتحدث بعيداً عن الوثائق والإحصاءات .. إن وقتي ضيّق أيها الكاردينال ، ونحن كما تعلم في صراع مع الزمن ، وعليّ أن أكون في أرغون عصر يوم غد .. ثمة قرارات ملكية جديدة ستصدر تباعاً ، ولكن ليس قبل أن أعرف وجلالة الملك شيئاً عن سير الأمور والنتائج التي تحققت على يدي محاكم التحقيق ..

خمنيث : (مشيراً إلى الإضبارة نفسها) هذا ما أردت أن أتحدث به .. إنها نتائج طيّبة

وستقرّ بها عينك ..

إيزابيلا : لا أريد أكثر من مؤشرات عامة ، فهي قد تكفينا في اللحظات الراهنة .. فيما بعد قد أطلب منك التفاصيل .. أو أطلّع عليها مباشرة ..

خمنيث : كما تشائين يا جلالة الملكة .. والمهم أن أنشطة مؤسستنا الناشئة هذه رغم أنه لم يمض على بدئها العمل سوى فترة قصيرة ، فانها حققت ما لم تكن تحلم به .. إذا كانت هذه هي البداية فكيف تتوقعين أن يكون عليه الحال عبر الشهور وربما الأسابيع القادمة ؟!

إيزابيلا : مثلاً ؟

خمنيث : (وهو يمسّد على الصليب الذهبي الذي يتدلى على صدره) تنصير سبعة آلاف من المسلمين ، وخمسة آلاف يتحتّم أن يتخذوا قرارهم خلال أربعة أيام فحسب .. و ..

إيزابيلا : (مقاطعة) وإذا كان قرارهم هذا في غير صالح الكنيسة ؟

خمنيث : كيف ؟

إيزابيلا : أن يصرّوا على البقاء على دينهم .. مثلاً ..

خمنيث : (مستمراً على تمسيد الصليب الذهبي) لن يكون بمقدورهم ذلك ..

إيزابيلا : كيف ؟

خمنيث : تلك هي مهمة رجالنا في محاكم التحقيق .. لقد عهدتِ وجلالة الملك بهذه المؤسسة الناشئة مهمة مقدّسة ، ولن أسمح لرجل ممن يعملون فيها بالتساهل بأي شكل من الأشكال ..

إيزابيلا : وهل تمّ الاتفاق في مؤسستكم هذه على ثوابت ، أو صيغ إجرائية محدّدة لتحقيق المطلوب ؟

خمنيث : بالضبط

إيزابيلا : مثلاً ؟

خمنيث : إذا سمحت لي جلالة الملكة قرأت عليها جانباً من الصيغ التي تمتّ المصادقة عليها في مجلس الكرادلة الأعلى وأقرّها البابا (منتبهاً) وأعتقد أنك وجلالة الملك أحطتم علماً بهذا

إيزابيلا : لقد كان دعم الباب قوياً بما فيه الكفاية ، ويجب أن تكون النتائج مكافئة لموقفه هذا ..

خمنيث : (وهو يشير إلى الملفّات المكدسة أمامها) بكل تأكيد ..

إيزابيلا : والآن فان لك أن تقرأ علي بعض ما تراه ضرورياً لتوضيح الموقف

خمنيث : (يفتح أحد الملفاّت ويقلّب أوراقه ثم يقرأ)

: يقوم ديوان التحقيق بإجراء التحريات السرّية المحلية عن المبلغ ضده ثم تعرض نتيجة التحقيق على الأحبار المقررين ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلّغ ضده تجعله مرتكباً لجريمة الكفر أو تلقى عليه فقط شبهة ارتكابها ، وقرارهم يحدّد الطريقة التي تتبع في سير القضية. وعلى أثر صدور هذا التقرير يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضده وزجّه في سجن الديوان السرّي و

إيزابيلا : (مقاطعة) أرجو أن تكون السجون بالمواصفات المطلوبة ..

خمنيث : (مبتسماً) غاية في البشاعة ! وهي تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب .. عميقة ، مظلمة ، رطبة ، تغص بالحشرات والجرذان .. ليست هذه هي المسألة يا جلالة الملكة ، إنما هي أن المتهم الذي يزج في سجوننا هذه يسقط في الحال في نظر الرأي العام ، وتلحقه وصمة لا تلحقه من أي سجن آخر مدني أو ديني ، وفيها يسقط في غمار حزن لا يوصف وعزلة عميقة ، ولا يعرف إلى أي مدى وصلت قضيّته ، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه ..

إيزابيلا : وماذا بخصوص أملاكه ؟

خمنيث : تصادر وتصفّى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بأسرته وبالعالم حتى تنتهي محاكمته ! ..

إيزابيلا : وكم تستغرق في تقديركم ؟

خمنيث : (يمط شفتيه) من عام إلى ثلاثة (يضحك) قد تسألين يا جلالة الملكة عمن يتحمل المصاريف الباهظة لهذه الإقامة الطويلة في فنادقنا الأنيقة هذه ؟

إيزابيلا : من .. مثلاً ؟

خمنيث : أملاكه المصادرة طبعاً .. وحتى هذه قد لا تكفي أحياناً ، وعندئذ نضطر لأن ندفع من جيوبنا

إيزابيلا : لا يريحني أن تخسروا شيئاً من أموالكم الخاصة .. ولكن .. هل يخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه ؟

خمنيث : لا مبرّر لذلك على الإطلاق !! وبدلاً من ذلك يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات في ثلاثة أيام متوالية ، اخترنا أن نسميّها جلسات الرأي أو الإنذار ، وفيها يطلب إليه أن يقرر الحقيقة ويوعد بالرأفة إذا قرر وفق ما ينسب إليه ، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر ، لأن الديوان المقدس

لا يمكن أن يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته ! فإذا اعترف بما ينسب إليه ولو كان بريئاً ، اختصرت الإجراءات وقضي عليه بعقوبة أخف ، ولكنه إذا اعترف بأنه كافر فانه لا ينجو من عقوبة الموت مهما كانت الوعود التي بذلت له بالرأفة والعفو

إيزابيلا : لنفترض أن المتهم أبى الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ؟

خمنيث : حينذاك يضع النائب قرار الاتهام طبقاً لما ورد في التحقيق من الوقائع ، مهما كانت الأدلة المقدمة ضعيفة ! وعلى أية حال ، فان المتهم يحال في معظم الحالات إلى التعذيب ، بطلب من النائب ، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم أحياناً بما ينسب إليه ..

إيزابيلا : كيف ؟

خمنيث : نحن نفترض دائماً أن المتهم أخفى شيئاً ما أو كذب في اعترافه .. تلك هي القاعدة التي يعتمدها رجالنا ..

إيزابيلا : ثم ؟

خمنيث : تصدر المحكمة قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة .. ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والأحبار المحققون والطبيب إذا اقتضى الأمر ..

إيزابيلا : وهل يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ؟

خمنيث : أبداً .. بل إنه لا يُسأل ليقرر وقائع معينة .. بل يعذب ليقرّر ما شاء. وقد يأمر الطبيب بوقف التعذيب إذا رأى حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جفّ دمه ..

إيزابيلا : طيّب .. ثم ؟

خمنيث : إذا اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحاً ، بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة ، كفّ عن تعذيبه ، وإذا استطاع احتمال العذاب وأصرّ على الإنكار ، لم يفده ذلك شيئاً ، لأن القضاة يتخذون غالباً من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلة على الإدانة ويحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار. ويجب أن يؤيد المعترف ما قاله وقت التعذيب ، باعتراف حرّ يقرّره في اليوم التالي ، وذلك حتى يؤكد صحّة الاعتراف ..

إيزابيلا : وإذا أنكر أو غيّر شيئاً من أقواله ؟

خمنيث : (يضحك) أعيد إلى التعذيب .. ليست هناك مشكلة على الإطلاق والمهم أنه بعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم إلى قاعة الجلسة ليجيب عن التهم التي توجّه إليه لأول مرة. وبعد المرافعة والاستجواب تحال القضية على الأحبار

المقرّرين ليبدوا فيها رأيهم تمهيداً للحكم النهائي .. وأحبّ أن أؤكد لصاحبة الجلالة بأن قرار الأحبار الأخير لن يختلف إلاّ في حالات استثنائية جداً عن قرارهم الأوّل ..

إيزابيلا : (وهي تغالب التثاؤب) جيّد !

خمنيث : (مستمراً) فإذا ما قضي عليه بالإدانة فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلاّ عند التنفيذ ، حيث يؤخذ المتهم من السجن دون أن يدري مصيره الحقيقي ويجوز الرسوم الدينية التي تسبق التنفيذ ، ثم يساق إلى ساحة التنفيذ ، وهناك يتلى عليه الحكم لأول مرة ، وقد يكون في حالة الكفر الصريح الإعدام حرقاً !

إيزابيلا : وماذا بخصوص أسرة المحكوم عليه وأبنائه وأقاربه ؟

خمنيث : يحرمون من تولي الوظائف العامة وممارسة بعض المهن الخاصة ..

إيزابيلا : وأعضاء المحاكم .. أعني صلاحياتهم ؟

خمنيث : لا حدود لها يا جلالة الملكة .. وسيمنحون حصانة مطلقة بحكم العمل المقدّس الذي يتولونه ..

إيزابيلا : هذا مناسب تماماً ، واعتقد أنه بدون إجراءات حازمة كهذه فلن يكون بمقدورنا تطهير البلاد من آثار المحمدّية إلاّ بعد قرن أو قرنين من الزمن ..

خمنيث : نحن مطمئنون لدعم المملكة .. وفي ضوء ذلك سنمضي في سياساتنا لتحقيق المطلوب في مدّة قياسية ، وسيباركنا الربّ .. وسترين بأم عينيك يا جلالة الملكة ..

إيزابيلا : (وهي ترسم ابتسامة خفيفة على وجهها) وإذا لم يجد هذا كلّه ؟

خمنيث : (بثقة) إذا كان رجالنا قد حوّلوا في مدى أسبوعين فحسب سبعة آلاف من الكفرة إلى دين الربّ ، وهم بصدد تحويل خمسة آلاف آخرين خلال أيام قلائل .. فكيف ستكون النتائج على مدى شهور عديدة ؟

إيزابيلا : ولكن الافتراضات واجبة أيها الكاردينال ..

خمنيث : هذا حقّ .. وما دام جلاّلتك يطلب المزيد من الضمانات فانني لا اكتمك القول بأن الكنيسة قد أعدت خططاً احتياطية لن يكون معها لأي مسلم أية فرصة للبقاء على دينه .. على الإطلاق ..

إيزابيلا : إنني معكم قلباً وقالباً .. والهاجس الذي يلّح عليّ هو ألاّ يتوفاني الربّ إلاّ بعد أن أكون قد طهرّت اسبانيا من كل أثر للمسلمين .. إنه حلم جميل يا كاردينال ، ولكن لا اعتقد أنه صعب التحقيق ..

خمنيث : (مبتسماً) بوجود محاكم التحقيق ليس ثمة أمرٌ صعب التحقيق !

إيزابيلا : (تبتسم هي الأخرى) ولكن لجلالة الملك فرديناند رأي آخر ، رغم أنه في الخطوط العريضة متفق معنا تماماً ..

خمنيث : مثلاً ؟

إيزابيلا : إنه يرى أن الشدة الزائدة قد تقود إلى نتائج معاكسة ..

خمنيث : (متغافلاً) نتائج معاكسة ؟

إيزابيلا : وهو يضرب مثلاً على ذلك بعصيان حيّ البيازين وتمرّد عصابات البشرات ..

خمنيث : (يصطنع الضحك) عصيان البيازين تمّ سحقه .. وتمرّد البشرات مسألة وقت فحسب .. والعبرة بالنتائج (يشير إلى ملف آخر) ..

إيزابيلا : حاولت إقناعه بهذا .. والمسألة ليست صعبة كما قد نتوهم فانني أعرف جلالته جيداً ، فهو ليس أقل حرصاً على تطهير البلاد وبأسرع ما يمكن .. ولكن للسياسة شروطها كما يحبّ أن يردّد بين الحين والحين ..

خمنيث : (وهو يعتدل قليلاً وتأخذ ملامحه جدية أكثر) في قضايا المصير ليس ثمة سياسة يا جلالة الملكة .. هذه يأتي دورها في الأمور الثانوية .. الأمور الأقل أهمية .. أما هنا في ساحة الصراع بين الإيمان والكفر .. بين الربّ والشيطان ، فليس ثمة سياسات .. أعني أنه ليس ثمة حلول وسط أو هوامش للخيار .. أو حتى فرص محفوظة للطرف الآخر .. إنه صراع الخير والشر ولابدّ لأحدهما أن يواصل البقاء ..

إيزابيلا : ولكن .. ومن أجل هذا الهدف النبيل ، لابد أحياناً من استدعاء السياسة ، التعامل بقدر المرونة مع حالات معيّنة من أجل احتوائها ، ثم – بعدئذ – قد يجيء الحسم ..

خمنيث : بقدر تعلّق الأمر بي فإنني لا أفهم مفردات القاموس السياسي ، ولا أستطيع التعامل بمنطوقه .. هنالك الأبيض والأسود ، ولابدّ لأوّلهما من تضييق الخناق على الثاني حتى يلغيه إلغاء وإلاّ أعطيت الفرصة للشيطان عن رضا وطواعية .. هذا ما تفعله السياسة بإعطاء هامش للرمادي .. وهذا مما يغضب الرب !!

إيزابيلا : (متراجعة بعض الشيء) لا أريد أن أخوض معك نقاشاً حول هذه المسائل الثانوية ، فالعبرة بالنتائج كما تردد أنت يا كاردينال ..

خمنيث : (وهو يربّت على الملف الذي بين يديه) بالضبط .. وما تحقق لحد الآن

وعلى مدى أسبوعين فحسب ، انما هو غيض من فيض ، وستشهد الأسابيع القادمة إنجازات أكبر بكثير لهذه المؤسسة التي باركها البابا والملكان العظيمان ..

إيزابيلا : سأحاول أن أقنع جلالة الملك بهذا كلّه ، وهو عموماً يصغي لنصائحي .. إذا كان يدعو لمبدأ المسايسة مع الكفرة ، فكيف به مع جلالة الملكة زوجته؟ (تضحك) ..

خمنيث : (بحبور) دعواتي بأن يبارك الرب عهد الإيمان الذي نعيشه تحت ظلال الملكين المخلصين ..

إيزابيلا : ليس هذا فحسب ، بل ان قرارات حاسمة ستصدر تباعاً كما ذكرت قبل قليل .. وستذيّلها بصمات جلالة الملك ..

خمنيث : (يعتدل فجأة كمن يتلقى بشرى ليست في الحسبان) هذه .. مع مباركة البابا وجهود رجال التحقيق ستتمخض عن الهدف الذي تتوحد فيه المؤسسات المقدسة الثلاث : المملكة والبابوية والكنيسة الإسبانية .. فشكراً للرب ..

إيزابيلا : لا اكتمك سرّاً أيها الكاردينال إذا قلت بأن جلالة الملك يلحّ عليه الهاجس نفسه : ألاّ يموت قبل أن تكون حملة التطهير والتنصير قد بلغت نهايتها !

خمنيث : ومن جهتي لا اكتمك سرّاً في أننا نلقى مقاومة عنيفة وإصراراً عجيباً من بعض المسلمين الذين نمارس التحقيق معهم ، على التشبث بديانتهم القديمة .. وطالما تساءل رجالنا : ما الذي يدفع هؤلاء إلى موقفهم هذا ؟

إيزابيلا : (وهي تحاول أن تخفي تثاؤبها) ثم ماذا ؟

خمنيث : بعضهم يموت تعذيباً دون أن يعطينا كلمة مما نريد .. وبعضهم يرمى في النار وهو يردّد الشهادة التي علّمهم إياها نبيّهم ..

إيزابيلا : عجيب !

خمنيث : ولكن اطمئني .. فالعبرة بالنتائج !!

إيزابيلا : وهل ثمة علاقة ما بين هذا العناد الذي لا مبّرر له وبين تمرّد عصاباتهم في البشرات ؟ أعني هل أنهم يؤملّون ، أو بعبارة أدق ، يخدعون أنفسهم باحتمال عودة المحمّدية إلى حكم غرناطة ، الأمر الذي قد يفسّر إصرارهم على البقاء على دين آبائهم وأجدادهم ؟

خمنيث : لا أعتقد أن هناك علاقة ما ، لأن هذه المواقف الانفرادية كانت قائمة حتى قبل تمركز العصابات هناك وإعلان تمرّدها .. أما الحلم الذي يحيك في نفوس عدد من أعداء الرب فهو لا يعدو أن يكون نوعاً من التعويض عن

الهزائم الساحقة التي منوا بها ، وهو على أية حال لا يعني شيئاً على الإطلاق .. والتاريخ لا يرحم أحداً ..

إيزابيلا : هذا حق .. لكننا يجب أن نحسب حسابنا لكل احتمال ..

خمنيث : اطمئني يا جلالة الملكة ، فهؤلاء الحالمون نعرف كيف نتعامل معهم ، وكيف نعيدهم إلى الواقع .. وبالمناسبة ، فقد استطعت بأساليبي الخاصة أن أصطاد أحد رؤوسهم ، وسأحاول أن أغريه بتنفيذ مطالبي التي قد تتمخض عن توجيه ضربة قاسية لعصابات البشرات هذه !

إيزابيلا : (باهتمام) كيف ؟

خمنيث : رجل منهم لا أكاد أذكر اسمه .. لعلّه أبو حيان ؟! أبو نصر ؟! صالح ؟! على أية حال يمكن أن نعثر على اسمه في الملف الخاص بالموضوع (يشير إلى المائدة) .. وهو من كبار أصحاب الأراضي في غرناطة ، وفضلاً عن ذلك فإنه يملك الكثير من الدور .. بل إن حيّا بكامله إلى الشمال من البيازين ، يسمى باسمه .. المهم أن التحقيق يجري معه الآن في أحد أقبية محاكمنا ، ولعل رغبته في حماية أملاكه والحفاظ على حياته ، يدفعانه إلى قبول مطالبنا ..

إيزابيلا : ألم يعد بعد إلى حظيرة الرب ؟

خمنيث : (يمسّد على لحيته) ليس هذا هو هدفنا الوحيد .. هناك ما هو أخطر ..

إيزابيلا : (بدهشة) كيف ؟

خمنيث : (يمطّ الحروف) اب– ... نه ..

إيزابيلا : ابنه ؟!

خمنيث : نصر .. على ما أذكر .. إنه واحد من قادة حركة العصابات في البشرات

إيزابيلا : وما الذي يستطيع الأب أن يفعل تجاهه ؟

خمنيث : (مستمراً على تمسيد لحيته) الكثير يا جلالة الملكة .. ولسوف ترين ..

إيزابيلا : دعنا من هذا (ثم كمن يتذكر شيئاً) أوه .. لم أقل لك بعد ما الذي أراده مني الكونت دي تنديا الذي اختاره متمردو حي البيازين قبل سحق حركتهم

خمنيث : لم أتلق التفاصيل بعد ..

إيزابيلا : قد لا تصدّق إذا قلت لك بأن من بين الشروط التي حملّوه إياها إعادتك إلى اشبيلية ..

خمنيث : (يفاجأ) ماذا ؟

إيزابيلا : اطمئن يا نيافة الكاردينال ، فقد رددنا شروطهم كافة !

خمنيث : لهم الويل .. ولكن كيف يجرؤ الكونت على نقل شرط كهذا ؟

إيزابيلا : ليس سوى وسيط ، وقد اجتهد رأيه وتوصّل إلى قناعة خاصة به ..

خمنيث : مثلاً ؟

إيزابيلا : تقديم بعض التنازلات للمتمردين والاستجابة لبعض مطالبهم كي لا يعودوا لمثلها كرة أخرى !

خمنيث : (ينهض قائماً) بما في ذلك إعادتي إلى اشبيلية ؟

إيزابيلا : لم يعد ذلك يعني شيئاً بعد فشل تمردهم وانسحابهم إلى البشرات ..

خمنيث : (مع نفسه) لن يمرّ التطاول دون عقاب .. أقسم بالأب والابن وروح القدس ..

إيزابيلا : (غير منتبهة) لقد كان ردّي وجلالة الملك مضاعفاً ..

خمنيث : (ينتبه) كنت أتوقع ذلك ..

إيزابيلا : لم نكتف برفض شروط المتمردين التي حملها الكونت ، بل اتبعنا ذلك بإصدار مرسومين جديدين ..

خمنيث : (بلهفة) أرجو أن أعرف ذلك ..

إيزابيلا : وهذا هو ما استدعيتك من أجله (تسلّمه لفافتين كانت تمسك بهما)

خمنيث : إنه ردّ مناسب تماماً (يفتح الملف الثاني ويقرأ وهو يدمدم مع نفسه) رائع .. رائع .. (يرفع صوته) هذا ما كنت أتوقعه .. فجلالتك تحملين لقب الكاثوليكية ، ولا يمكن لمن يحمل هذا اللقب أن يقبل بوجود رعايا يدينون بديانة أخرى .. لقد كنت أقول دائماً بأن اتّباع اللين مع سكان غرناطة بعد تمرّدهم ذاك لن ينتج سوى انتفاضات مماثلة في بقية البلاد ..

– ستار –

الفصل الثاني

المشهد الأول الزمن : ٩٠٥هـ/١٤٩٩م

المكان : "غرفة معتمة في إحدى محاكم التحقيق في غرناطة لا يكاد الضوء ينفذ إليها.
إلى اليمين تمتد أريكة متداعية يجلس عليها الأسقف راميرو بيدرو ، أحد كبار المحققين ، بادي الإعياء ، وإزاءه ، على الأرض العارية ، يقف رجل مكبّل بالأغلال وقد تبعثر شعره الكث بغير انتظام ، وامتدت لحيته بغير ما تشذيب ".

الأسقف : إذن فانك لا تريد أن تعترف ..

الرجل : قلتّ لقداستك بأنني لا يمكن أن اعترف بشيء لم أفعله !

الأسقف : لقد فعلته .. هذا أمرٌ مفروغ منه .. ليس بمقدورك أن ترجع بي ثانية من حيث بدأنا .. أنا لا يهمني أن تعترف أم لا ، ما دام الأمر كذلك .. ولكنها مصلحتك أولاً وأخيراً .. فقد يخفف عنك الاعتراف شيئاً من العقوبة التي تستحقّها ..

الرجل : قداسة الأسقف .. أعترف بماذا ؟ إذا كان كل ما وجّه إليّ من تهم لم يخطر ببالي ، فضلاً عن ممارسته بالفعل ، فعلامَ أعترف ؟ ألا ترى أن هذا مناقض للحق الذي تتوخاه عدالتكم ؟

الأسقف : كذبة معروفة جيداً .. بالنسبة لنا على الأقل .. عشرات من أصحابك قالوا الشيء نفسه .. ثم ماذا كانت النتيجة ؟ قليل من العنف المشروع جعلهم يقولون كل شيء ..

(يهم الرجل بالكلام فيقاطعه الأسقف)

لا تضطرنا للرجوع إليه .. فان آخر الدواء الكيْ ..

الرجل : لكنيّ ..

الأسقف : (يقاطعهُ ثانية) مصلحتك (يصرخ وهو ينهض قائماً) ألا تهمّك مصلحتك ؟

الرجل : مصلحتي هي أن أؤكد لكم براءتي ، وأدعو الرب أن يكشف لكم عن

صدقي وحينذاك ستعرف قداستك لمَ أصررت على عدم الاعتراف ..

الأسقف : (وهو يذرع الغرفة المعتمة) والشهود الثلاثة الذين أقسموا على الكتاب المقدّس .. ماذا نفعل بشهاداتهم ؟

الرجل : (وهو يتراجع قليلاً لكي يتكئ على الجدار) لا أعرف أياً منهم .. ولم يسبق لي أن التقيت – ولو عرّضاً – بأحدهم ..

الأسقف : ولكنهم يعرفونك .. وقد رأوك بأم أعينهم ..

الرجل : (بدهشة) رأوني ؟

الأسقف : (وهو يمسّد على عصاه الأنيقة) بكل تأكيد ..

الرجل : أين ؟

الأسقف : لا تسل أين ، ولكن قل : ماذا كنت تفعل عندما رآك كل واحد منهم ؟

الرجل : ولكن الفعل لا يتحقّق في الفراغ .. لابدّ له من زمن ومكان .. فمتى رأوني أخالف تعاليمكم .. وأين ؟

الأسقف : (بعصبية) إذا عدت إلى أسلوب التحدّي ، فسوف أعرف كيف أردّ عليك .. إن اللفّ والدوران لا يجديان فتيلاً .. وأنت تعرف ما الذي فعلناه في الآونة الأخيرة .. لقد تمكنا ، بأساليبنا الخاصة ، أن نحمي الحقيقة من الضياع ..

الرجل : حاشا للرب أن أتحدّاك .. ولكني أجد من حقي أن أبيّن لقداستك أنني لم أمارس تهمة أستحق عليها عقاباً .. بل استدعاءً وتحقيقاً .. إنني واثق من ذلك ..

الأسقف : (وهو ينفخ في الهواء) أوف .. إنك تصرّ على إرهاقي .. وأمامي آخران من أصحابك عليّ أن أتخلّص من التحقيق معهما قبل حلول موعد الغداء!

الرجل : عفواً .. ولكني أريد أن أعرف فقط ، ما الذي اقترفت كي أجيء إلى هنا ؟

الأسقف : (يريد ظهره للرجل) قال أوّلهم أنه رآك تصلّي ..

الرجل : في البيت أم في الكنيسة ؟

الأسقف : في البيت طبعاً ..

الرجل : وماذا في ذلك ؟

الأسقف : (يلتفت وملامح السخرية تكسو وجهه) ألا تعرف أن الصلاة على الطريقة الإسلامية عقوبتها الإعدام ؟

الرجل : أقسم لك بالرب .. أني لم أفعلها منذ صدرت تعليماتكم بهذا الخصوص ..

إن أهلي وأقربائي يعرفونني جيداً .. رجلاً مسالماً يخاف من ظلّه .. لقد تنصّرت منذ وقت طويلٍ ، فهل جننت لكي أسلم رقبتي للذبح ؟

الأسقف : (مركزاً على مخارج الأحرف) ورآك الثاني وأنت تتشهّد ..

الرجل : ولكني ..

الأسقف : (مقاطعاً) أتدري معنى ذلك ؟ أتعرف أنك بتشهدّك قد ارتددت عن دينك المسيحي ، وأدنت نفسك بتهمة الهرطقة ؟

الرجل : ولكني ..

الأسقف : (مستمراً) والهرطقة .. إذا قرأت جيداً لائحة التعليمات الأخيرة التي أصدرها جلالة الملك .. عقوبتها الإعدام كذلك !

الرجل : أين ؟ ومتى ؟ أريد أن أعرف .. إن الرجل إذا صحّ وأنه شهد ضدّي ، فمعنى ذلك أنه يريد أن يقتلني .. أقسم بالرب ، وبشرف المملكة أنه يريد أن يقتلني !

الأسقف : (بغير التفات لكلامه) أتعرف ما الذي قاله ثالثهم ؟

الرجل : لا أريد أن أعرف .. لأنهم جميعاً يكذبون عليّ ..

الأسقف : (مستمراً) يقول انه رآك تمتنع عن الطعام والشراب عبر نهار بأكمله .. وبعدها .. وعند الغروب تماماً ، دلفتَ إلى أحد المطاعم العامة لكي تلتهم الطعام التهاماً ..

الرجل : أي مطعم ، وأي امتناع هذا ؟ بل أي رجل أتيح له أن يرقبني نهاراً بأكمله؟

الأسقف : (وهو يركز على مخارج الأحرف) لقد .. كنت .. صا .. ئماً ..

الرجل : (غير ملتفت إليه) إن شهادته تحمل تناقضها فلا يمكن لعاقل أن يأخذ بها ..

الأسقف : (متغاضياً هو الآخر) .. والصيام ، أنت تعرف جيداً ما الذي يعنيه ؟

الرجل : أعرف .. أو لا أعرف .. ولكنّ ما هو مؤكد أني مذ تنصّرت لم أبح لنفسي أية ممارسة يأمرني بها ديني القديم .. انني أعرف جيداً معنى هذا (يصرخ) إذا كنتُ قد تنصّرت وارتددت عن ديني ، فماذا يفيدني أن أمارس بعض شعائره .. إنكم تدركون ، قبل غيركم ، أن هذا لن يعيدني إلى ديني، أو يعيد ديني إليّ .. وتعرفون جيداً أنه لن يمنحني رضا الله ورحمته .. لقد ارتددت وكفى ..

الأسقف : (يصرخ هو الآخر) سبقك آخرون وتحدّثوا معي باللهجة نفسها .. إنني

اكره هذه اللهجة .. أتفهم ؟ أكره أن يتحدّاني أحد .. والذين سوّلت لهم أنفسهم أن يصرخوا بوجهي ، فقدوا آخر فرصة للخلاص ، وذهبوا إلى حيث لا يدري أحد .. إن رفاقي الأساقفة يتهمونني بأنني مرن أكثر مما يجب .. متساهل .. وأنني أفتح صدري لكل من يسوقه حظّه الحسن لكي أتولّى التحقيق معه .. ولكني سأعرف بعد الآن كيف انتزع من نفسي الرحمة التي تعذّبني ، فلا تكن أوّل من يضطرني إلى ذلك ..

الرجل : (وهو ينزلق على الجدار لكي يجلس على الأرض مرهقاً مكدوداً) أعرف جيّداً طرفي السكين ، وأنني حيثما ملت إلى أحد هذين الطرفين خسرت رأسي .. منذ زمن والناس يتحدثون بهذا .. كانوا يتهامسون أول الأمر .. ولكنه لتكراره ، وحضوره اليومي ، وثقله ، دفعهم دفعاً إلى التحدّث به في الشوارع والساحات والميادين .. إنكم أنتم أيضاً ترغبون في هذا لكي تستلوا من النفوس آخر بقايا القدرة على الرفض والمقاومة .. فإلى أيّ حدّ تريدني أن أميل يا قداسة الأسقف ؟

الأسقف : (يتراجع لكي يجلس على الأريكة) إلى مصلحتك .. لكي تنقذ حياتك ..

الرجل : مصلحتي تقول بأن عليّ أن أكون صادقاً مع نفسي ومعكم ..

الأسقف : يعني ؟

الرجل : يعني أنني رجل مشبع قلبه بالخوف حتى آخر خليّة فيه .. جبان بعبارة صريحة ، وكل من لهم علاقة ما به يعرفون عنه ذلك جيداً .. وهو منذ أعلن تنصرّه ، لم يبح لنفسه أن يفكر مجرد تفكير بأية مخالفة قد تقضّ مضجعه ، ولا تدعه ينام .. منذ صدور تعليماتكم معززة بالإرادة الملكّية ، عرف جيداً أن أية ممارسة مما كان يلزمه بها دينه السابق ، تعني الموت .. فلم يسمح لنفسه أن تخطر على باله قط !!

الأسقف : (ينهض بعصبية) كل الذي أريده منك أن تجيبني بنعم أو لا على سؤالي

الرجل : (ينهض باحترام) تفضّل يا قداسة الأسقف .. أرجو أن يريحك جوابي !

الأسقف : هل مارست بالفعل الجرائم الثلاث المذكورة ؟

الرجل : كلا !!

الأسقف : وابنك ؟

الرجل : (كمن يتذكر شيئاً غاب عن وعيه أمداً طويلاً) أوه .. ابني .. قلها يا قداسة الأسقف .. قلها .. ولسوف تجدني اعترف بها منذ اللحظة الأولى .. كان بمقدورك أن توفّر على نفسك هذا العناء ..

الأسقف : لقد تأكد لنا أنه هرب .. وهو الآن يعمل مع المتمردين في جبال البشرات .. (يشير إلى الجنوب) ..

الرجل : ربما ..

الأسقف : أتعرف معنى ذلك ؟

الرجل : واضح يا قداسة الأسقف ..

الأسقف : إنه الآن يتحدى الكنيسة المقدسة والتاج الملكي !

الرجل : وما ذنبي أنا ؟

الأسقف : (يضحك) بالطبع ، لا ذنب لك .. ولا يمكن أن تكون أنت الذي حرّضته على الهروب !

الرجل : طبعاً ..

الأسقف : (يصرخ) ولكنك أبوه !

الرجل : بكل تأكيد ..

الأسقف : ومعنى ذلك أنك مسؤول عنه ..

الرجل : آه لو تدري يا قداسة الأسقف كم حاولت أن أفيد من هذه المسؤولية لكي أغسل قلبه وعقله من بقايا ما كان يعلق بهما من دينه القديم ! أسابيع طوالاً وأنا ألاحقه لكي يتمحّض لدينه الجديد .. ما من صيغة من صيغ الوعد والوعيد إلاّ اتبعتها معه .. لقد كنت أتصوّر أن الأمر قد حسم !

الأسقف : كل ذلك لم يمنعه من تمسّكه بدينه القديم ..

الرجل : ذلك أنه ليس بمقدور قوة في الأرض أن تتحكم في شيئين اثنين : عقل الإنسان وقلبه ..

الأسقف : (بثقة) وماذا فعلنا نحن ؟

الرجل : (لا يجيب) ..

الأسقف : (بالثقة نفسها) عبر أسابيع قلائل نحوّل الآلاف من أصحابكم إلى المسيحية !

الرجل : (لا يجيب) ..

الأسقف : أتعتقد أن بمقدور ابنك أن يفعل شيئاً ذا بال ؟

الرجل : سؤال كهذا .. قداستكم أدرى بالإجابة عليه ..

الأسقف : (وهو يهمّ بمغادرة المكان) باختصار شديد ، أنت مطالب بإعادته إلينا !

الرجل : الكنيسة المقدسة والمملكة أقدر من شخصي الضعيف على تحقيق ذلك ..

الأسقف : (غير ملتفت لكلامه) أنت مطالب بإعادته إلينا ، وسوف نمنحك الفرصة ، ولن يكون لك بعدها من معذر !!

الرجل : والتهم الثلاث التي لفقّها الشهود ضدّي ؟!

الأسقف : سوف نغفرها لك !

الرجل : (بتوسّل) ولكن .. يا قداسة الأسقف .. إن إعادته إليكم أمرٌ مستحيل .. وأنتم تعرفون ذلك جيداً ..

الأسقف : (وهو يضع يده على مقبض الباب) كفى .. لن أسمح لك بأكثر من هذا.. لقد ضيّعت عليّ من الوقت ما فيه الكفاية .. إنني الآن أحسّ بالغثيان ، لكثرة ما لففت ودرت ، أتعرف ؟ إنني أريد أن أتقّيأ ، كما لو كنت قد امتطيت الحصان الخشبي الدوّار .. لن أسمح لك بكلمة أخرى ..

الرجل : (بالتوسّل نفسه) .. ولكن .. ما الذي بمقدوري أن ..

(يغادر الأسقف راميرو بيدرو المكان صافقاً الباب وراءه بعنف .. بينما يتهاوى الرجل على الأريكة المتداعية وهو يحدث نفسه ..)

: هذه هي نهاية المطاف يا صالح بن السائب .. خسارة الدنيا والآخرة .. ها هو ذا ابنك يهرب إلى الجبال لكي يلقى مصيره هناك .. أما أنت فلا تدري متى يخرجون بك إلى ساحة المدينة لكي تلقى جزاءك أمام حشود الناس .. ليس ثمة غير القتل يا صالح .. فماذا جنيت بعد مذّلة الارتداد عن دينك .. ماذا جنيت ؟

(تعتيم مركز ، ثم ينكشف فضاء المكان شيئاً فشيئاً عن المشهد نفسه ، ونلمح رجلاً مهيباً يرتدي عباءة بيضاء فضفاضة ويغطي رأسه بعمامة أنيقة يقف قبالة صالح ويده على مقبض سيفه المركوز في الأرض)

الرجل ذو الرداء الأبيض : ولكنك ضيّعت نفسك يا صالح .. أما هو فقد وجدها !

صالح : (يتمعّن في الرجل ثم ما يلبث أن ينهض لكي يعانقه) أبو اليقظان بن هاشم ؟ ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

أبو اليقظان : أفكارك السوداء .. جبنك !!

صالح : رحماك يا أبا اليقظان .. لا ترفع صوتك لئلا يسمعوك .. يكفيني ما أنا فيه ..

أبو اليقظان : (يبتعد قليلاً) إذا كنت تعرف جيداً أنك مقتول لا محالة فلماذا لم تصرخ

بوجه الأسقف ؟ لماذا لم تقل له انه كاذب !

صالح : (متوسلاً) أرجوك .. كفّ عن الصراخ ..

أبو اليقظان : وندعهم يصرخون في وجوهنا فنلعق الذلة والهوان ونحن نتلذّذ ككلاب الحيّ الشاردة ؟؟

صالح : وماذا بمقدورنا أن نفعل ؟

أبو اليقظان : أنت الذي يوجّه إليّ هذا السؤال ؟

صالح : وماذا في ذلك ؟

أبو اليقظان : أكان يجب على ابنك ، الذي لم يبلغ الثلاثين من عمره ، أن يعلّمك ؟

صالح : (بلهفة) نصر ؟ قل لي بالله ، هل تعرف عنه شيئاً ؟

أبو اليقظان : ما تعرفه أنت ولكن لا تحبّ أن تتعلم ..

صالح : (يتنهّد) لو ذقت عشر معشار ما تلقيّته على أيديهم لما تحدثت معي بهذه اللهجة .. ولكن ..

أبو اليقظان : (يتنهد هو الآخر) أعرف .. أعرف .. ولكنه الصبر يا صالح .. إن ديننا ليس مما يضحّى به بسهولة .. وشركهم المقيت ليس سوى ثمن بخس .. بضاعة مترعة بالغش والتدليس والزيف للذهب الأصيل الذي قايضتّ به ..

صالح : لقد تجاوز الأمر حدود الاحتمال .. تجاوزها حتى حافاتها القصوى .. أتدري يا أبا اليقظان ؟ لقد ربطوا ساقيّ وذراعي بأداة تشبه السلّم وخفضوا رأسي إلى أسفل ثم أخذوا يدفعون في فمي من إحدى الجرار جرعات كبيرة من الماء وأنا أكاد أختنق .. أرغموني على شرب ما يفوق قدرتي على التحمّل .. بعد يومين أو ثلاثة عادوا لكي يمارسوا تعذيبي بالأسياخ المحميّة .. لم يبق ثمة موضع في بطني وعجزي وقدميّ لم تنطبع عليه آثار الأسياخ .. ولم يكتفوا بهذا بل حاولوا سحق عظامي بالآلات الضاغطة ، حتى إذا أوشكت على الموت ، كفّوا عن التعذيب ، وبعثوا إلي طبيباً لمعالجتي وتمكيني مرة أخرى من أن أصبح مشروعاً جاهزاً للتعذيب .. (يتنهّد) والله يا أبا اليقظان ، لقد نقلوني ممزقاً دامياً إلى قاعة الجلسة اللعينة لكي أجيب عن التهم التي توجّه إليّ لأول مرة .. لقد أوشكت أن أفقد عقلي .. ودعوت الله أن يأخذ روحي ويخلّصني من العذاب .. وها أنك ترى .. لقد كان هذا فوق طاقتي .. لقد كان إكراهاً لم يتركوا لي فيه سمّ خياط لكي أنفذ منه أو احتفظ بخياري ..

أبو اليقظان : هذا لو أن القلب ظل مطمئناً بالإيمان .. ولكنهم لن يسمحوا حتى بهذا .. إنهم يعرفون كيف ينزعون الجلد ويمزقون شغاف القلوب لكي يلاحقوا نبضها .. ينصتوا إليه جيداً من أجل أن يتأكدوا مما تقول .. إن شهادة (لا إله إلاّ الله) تؤرّقهم ، وهم – لذلك – آلوا على أنفسهم أن يستأصلوها من خفقان القلوب ..

صالح : (بحزن) لا حول ولا قوة إلا بالله ..

أبو اليقظان : إنها صفقة خاسرة يا أبا نصر ، كان يمكن على بشاعتها أن تنقلك إلى برّ الأمان .. أمان الدنيا فحسب .. أمان السنوات العشر أو العشرين المتبقية لك من العمر ، وهي لا تستحق أن تقايضها بالجنة .. وعلى أية حال فإنه ما دام لك ابن هناك (يشير إلى الجنوب) يشارك في الثورة ضدهم .. فإنهم لن يدعوك حتى لو ارتديت ثياب الرهبان .. هل بمقدورك أن تعيده إليهم ، أو أن تطلب منه أن يكف وإخوانه عن رفع السلاح بوجه المملكة ؟ أبداً .. ومن ثم كان عليك أن تدرك أبعاد المعادلة التي صرت طرفاً فيها ، وألاّ تجعل غبشها يضيّع عليك الرؤية الصائبة ..

صالح : ما تقوله أعرفه جيداً .. وبالنسبة لنصر فانني لست مسؤولاً عن خياره .. وهم يعرفون هذا جيدا ..

أبو اليقظان : هذا هو أحد جانبي الصورة .. وهناك الجانب الآخر ..

صالح : مثلاً ؟

أبو اليقظان : أخشى أن يرغموك على الذهاب إليه لكي تقنعه وإخوانه بإلقاء السلاح ، بحجة أنك أبوه وأنك تملك السلطة عليه !

صالح : لن يكون هذا ..

أبو اليقظان : (وهو يمسّد على لحيته) سترى ! ولسوف تخفق محاولتهم بكل تأكيد ..

صالح : ولكن ..

أبو اليقظان : (يشرد قليلاً) عندما وضع طارق بن زياد أقدامه على هذه الجزيرة ، لم يكن يريدنا أن نرجع ، ولعلّ هذا هو سبب ما أشيع عنه – خطأً – من إحراقه السفن .. وبدلاً من ذلك قال لهم بصراحة قاطعة كالسكين : انتصروا أو موتوا ..

صالح : (هو يتحسّس مواضع الألم في جسده) ولكن محاكم التحقيق وقسسها الذين لا يعرفون الرحمة و ..

أبو اليقظان : (مستمراً) الفونسو وفرديناند وايزابيلا وخمنيث والدون ديجا ديسا وراميرو

بدرو وقسس محاكم التحقيق كلّهم أدوات .. مجرد أدوات .. لإنزال العقاب بنا .. لقد ضيّعنا على أنفسنا مبرّرات وجودنا على هذه الأرض .. وكان لابدّ من أن نضيع .. تلك هي سنّة الله ..

صالح : ولكننا قدمنا الكثير .. ضحينا كثيراً يا أبا اليقظان .. لقد كنت أسمعهم بأذنيّ هاتين في الزنازين والأقبية المجاورة يكبتون حتى الصرخة التي تخفف شيئاً من العذاب .. حتى كلمة (آه) كانوا يطبقون عليها أفواههم لكي لا يفتحوا على أنفسهم ثغرة قد يتسلل منها هواء الكنيسة الفاسد .. كثيرون ماتوا تحت التعذيب وهم يردّدون : " أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله " ..

أبو اليقظان : لقد ذهبوا قريري العين .. وربحوا البيع .. ولكن ذلك جاء متأخراً .. جاء بعد فوات الأوان .. (يشرد مرة أخرى) عندما جاء الفاتحون بالنخيل والرمان وزرعوها هنا ، في هذه الأرض ، كانوا يريدون ضمان المستقبل .. تجذّر الذراري والأبناء في الأرض .. ولكن الذي حدث ، أننا على مدى أجيال متطاولة لم نحاول أن نسقي الزرع ، فأصفرّ وتيبّس وغدا حطاماً .. لقد كان حصادنا يا صالح من جنس عملنا .. وتلك هي – مرّة أخرى – سنّة الله ..

– ستار –

المشهد الثاني **الزمن : ٩٠٥هـ/١٤٩٩م**

المكان : " المنظر السابق نفسه ..
صالح يقف منهكاً قبالة الكاردينال خمنيث الذي يجلس وراء طاولة كدّست فوقها الأضابير ، وإلى يمينه المحقق العام الحبر ألدون ديجا ديسا ".

خمنيث : (يضع مرفقه على الطاولة وهو يمسّد لحيته) لو كنت مكانك لما ترددت لحظة واحدة ..

صالح : (بسخرية مكبوتة) ليس ثمة أي مجال للتردّد أيها الكاردينال !

خمنيث : هذا ما توقّعته ..

صالح : (وهو ينظر بطرف خفي إلى ألدون ديجا ديسا) أخيراً منحني القناعة الكافية ..

خمنيث : من ؟

صالح : فخامة الأسقف كبير المحققين ..

خمنيث : (يهمس في أذن الدون ثم يلتفت إلى صالح) تلك هي مهمته على أية حال

صالح : بالتأكيد ..

المحقق العام : أعتقد أن الأمور كانت تسير على ما يرام ، ومع ذلك فاني أحب أن أسألك، وأريدك أن تجيبني بصراحة : هل أزعجك شيء ؟

صالح : (بالسخرية المكبوتة نفسها) أبداً .. ولكن رجالك يا فخامة الأسقف !

المحقق العام : ما بهم ؟

صالح : (إلى خمنيث) هل أستطيع أن أتكلم بحرية ؟

خمنيث : قل ولا تخش شيئاً فليس معنا إلا! الربّ !

صالح : لقد آذوني كثيراً .. لم يكتفوا بتعذيبي ، ولكنهم ابتزّوا أموالي .. ملأوا بها جيوبهم .. كان أحدهم يقول لي : الضيعة الفلانية في غرناطة .. البستان الكبير عند مشارف البيازين .. ولسوف نجعلك ترجع إلى أهلك .. وكنت أتساءل مع نفسي ، إذا كان رجالكم من القسس قد نذروا أنفسهم لخدمة السيّد المسيح طمعاً بمملكة السماء ، فما الذي يجعلهم يتهافتون على المال ؟ استمحيك عذراً يا قداسة الكاردينال ، إذا سمحت لنفسي أن أقول

شيئاً لابدّ من الإفضاء به قبل أن يدمّرني من الداخل ..

خمنيث : (يتثاءب) ها قد عدت إلى الهذر وتضييع الوقت ..

صالح : (تتعثر الكلمات في حلقه) لقد اغتصب .. ثلاثة منهم .. إحدى بناتي .. فهل يرضيك هذا ؟ ألا يجعل .. الربّ .. نفسه .. يتميز غضباً ؟!

المحقق العام : (يصوّب إليه نظرات مترعة بالوعيد) ما كان لهم أن يؤذوك لو لم تكن قد استعصيت عليهم !

صالح : التشبّث بالحق ليس عصياناً يا فخامة الحِبْر ..

المحقق العام : (بدون اكتراث) مع ذلك !

صالح : ما الذي تعنيه كلمة التحقيق عندكم ؟

المحقق العام : (مستفزاً) وتريد أن تحاسبني يا رجل ؟ لماذا لا تأتي فتجلس في مكاني ؟

صالح : مجرد سؤال أعرضه بكل تواضع وبدون أي قدر من الاستفزاز (منتبهاً) ومن هو صالح هذا حتى يبيح لنفسه استفزاز كبير المحققين ؟

المحقق العام : رجالنا لا يهّمهم سوى اكتشاف الحقيقة .. إنهم لا يريدون أكثر من رضا الرب !

صالح : كل ما كانوا يريدونه أعطيتهم إياه ، ولم يك ثمة مبّرر على الإطلاق لتعذيبي ..

خمنيث : لا تخرج عن الموضوع وتعيدنا مرة أخرى إلى الوراء .. ثم إن هذا الأسلوب ليس في مصلحتك ، والوقت يمضي سريعاً وعليك أن تعطينا خيارك قبل فوات الأوان ..

صالح : حاضر يا سيادة الكاردينال ولكن في النفس شيئاً وأنا ألجأ إلى خيمتك محتمياً بها لكي أعرف فقط لماذا مارسوا معي أشد صيغ التعذيب ؟؟ انك تعرفني جيداً .. لست صلباً ولا استفزازياً .. لقد وافقت منذ البدء على العودة إلى حظيرة الإيمان .. وأعربت عن استعدادي الكامل لوضع نصف ممتلكاتي تحت تصرّف الكنيسة من أجل أن تسمحوا لي بالرجوع إلى أهلي والاحتفاظ بما تبقى من أموالي وضياعي .. وقداستك يعلم كيف أنها تمثل كدح العمر كلّه ..

المحقق العام : (يحاول أن يردّ فيسكته خمنيث بإشارة من إصبعه) ..

خمنيث : سأجيبك يا هذا بإيجاز فالوقت ليس ملكي كما أنه ليس ملكك .. إن أمامنا مئات من المسائل المعلّقة يجب البت فيها ، ولن أسمح لك بعرقلة أعمالي .. المهم .. أن مسألة التعذيب هذه التي تلّح بالوقوف عندها بأكثر مما

تستحقّه ، لا تعدو أن تكون مسائل إجرائية .. إجرائية صرفة .. وحتى هذه فإن رجالنا لا يلجأون إليها إلاّ عند الضرورة القصوى .. وبالمناسبة فإنني أحبّ أن أقول لك بأن الآلاف من أصحابك فاءوا إلى حظيرة الإيمان دون أن نمارس معهم أي قدر من القسر أو الإكراه .. ناهيك عن التعذيب .. لقد كان ذلك بملء إرادتهم .. أليس كذلك يا ديجا ديسا ؟

المحقق العام : ليس هذا فحسب .. بل إن باحات محاكم التحقيق تعاملت مع آلاف أخرى من هؤلاء بأقصى صيغ التفاهم والإقناع الحرّ .. وخرجوا وقد تطهّروا من آثامهم ، دون أن ترفع بوجه أحد منهم عصا أو يجلده سوط !

صالح : لا أناقشكما في هذا .. أولاً لأنني لست شاهد عيان عليه .. وثانياً لأنه ليس من حقي أن اتحوّل إلى قاضٍ قبالة نيافة الكاردينال وقحامة الأسقف .. فذلك بمجرد أن يجول بخاطري هو الجنون بعينه !

(خمنيث والمحقق العام يضحكان)

صالح : (مستمراً) ولكن بقدر ما يتعلق الأمر بخبرتي الشخصية ، فأنا شاهد عيان على نفسي بكل تأكيد .. وأقولها بصراحة ، محتمياً كرة أخرى بخيمة قداسة الكاردينال .. لقد تعرّضت لأبشع صيغ التعذيب .. وليعاقبني الربّ إن أنا أبحت لنفسي الكذب عليكم ..

خمنيث : (بملل) ها أنت تعود ثالثة إلى الموضوع نفسه (بعصبية) لقد قلت لك إن هذه مسألة انتهت تماماً .. وأن الوقت يضيّق عليّ الخناق .. وكل ما أريده منك هو أن تقول : نعم .. أو .. لا ..

صالح : لقد قلت نعم منذ عدة أيام ..

خمنيث : قلتها للرب !

صالح : ماذا تقصد يا قداسة الكاردينال ؟

خمنيث : (بنزق) نريدك أن تقولها لنا هذه المرة .. فإن الربّ وحده لا يكفي ..

صالح : اعذرني إذا قلت لك أنني لا أكاد أفهم شيئاً ..

المحقق العام : اللف والدوران يا هذا طالما مارسته في باحات التحقيق .. هكذا قال لي رجالي .. ولعلّه هو الذي ألجأهم إلى ما أسميته أنت بالتعذيب ..

خمنيث : بعبارة واضحة .. هل لديك الاستعداد لتنفيذ المهمة التي عرضت عليك في لقائنا السابق ؟

صالح : (كمن يتذكر) معذرة يا قداسة الكاردينال .. لقد كادت ذكريات التعذيب المريرة تنسيني الموضوع برّمته ..

خمنيث : فلنبدأ إذن من حيث انتهينا .. أليس هذا هو منطق الأشياء يا رجل ؟

صالح : بالضبط ..

خمنيث : قل لي إذن ما الذي استقرّ عليه رأيك ؟

صالح : ابتداءً .. فإنني أعرب عن موافقتي ، ولكن ليس قبل وضع بعض النقاط على الحروف .. أليس كذلك ؟

خمنيث : (وهو يتثاءب) مثلاً ؟

صالح : (ينظر من طرف خفي إلى المحقق العام) أن أحصل على تعهدّ خطي من الكنيسة المقدّسة بعدم التعرض لأملاكي ..

خمنيث : (مستمراً على تثاؤبه) ثم !

صالح : وحماية أهلي وأولادي ..

خمنيث : وهل فاء أهلك وأولادك إلى حظيرة الرب ؟

صالح : بكل تأكيد .. وتستطيعون أن تتأكدوا من ذلك .. فالمسألة ليست متعذرة كما أعتقد ..

خمنيث : وبعدئذ ؟

صالح : بعدئذ سأنطلق إلى جبال البشرات وأنا مطمئن إلى أن ظهري لم يعد مكشوفاً .. وهناك سأبذل جهدي لإقناع ابني .. وربما رفاقه من المتمردين، على التخلي عن أسلوب العصيان غير المجدي .. والانصياع لرغبة المملكة والكنيسة معاً ، في التوصّل إلى حلّ سلميّ عادل يرضي الأطراف كلّها ..

خمنيث : حسناً .. ثم ؟

صالح : أعتقد أنني أملك من الحيثيات ما سيعينني على أداء مهمتي هذه بقدر كبير من الضمان .. وعلى أية حال فإن الذي سأفاوضه هو ابني !

خمنيث : هذا ليس مقنعاً بما فيه الكفاية .. بل ، ربما ، قد يحدث العكس تماماً .. إن ردود الأفعال قد تذهب بعيداً في الاتجاه الآخر ..

صالح : ولكنه ولدي ..

خمنيث : (وهو ينظر إلى المحقق العام) بل لأنه ولدك !!

صالح : (متشبثاً بقناعاته) المهم أن أبذل ما في وسعي .. والباقي بيد الرب !

خمنيث : لنفترض أن الربّ قرّر ألاّ يتدخل في هذه المسألة ..

صالح : (بعفوية) أعوذ بالله !

خمنيث : ماذا ؟

صالح : إن ثقتنا بالرب مطلقة يا قداسة الكاردينال .. وهو سيعيننا في مهمتنا هذه بكل تأكيد ..

خمنيث : ها قد عدت إلى كلامك الملفوف .. أجبني بصراحة : ماذا لو أخفقت في مهمتك ؟

صالح : أكون قد نفذت عرضكم المشروع ، وبذلت ما في وسعي ، وأرضيت ضميري .. وسأرجع لكي أحيا آمناً مطمئناً وسط أهلي وأملاكي في بلدي العزيز غرناطة ..

خمنيث : وولدك المتمرد هناك ؟

صالح : ليذهب إلى الجحيم .. إن حنكة جلالة الملك والملكة ، وعدالة القضية التي تحميها الكنيسة المقدسة ويباركها البابا ، كفيلة باستئصال هذا الورم الخبيث في بقعة لا تكاد ترى من اسبانيا ..

المحقق العام : (يهمس في أذن خمنيث ثم يتوجه إلى صالح) وكيف نضمن أنك لن تبقى هناك ، وتنزع قناعك المسيحي ، وترجع إلى دينك السابق ؟

صالح : ليس الأمر بهذه السهولة يا فخامة الأسقف !

المحقق العام : لقد فعلها الكثيرون ، ويمكن أن تفعلها أنت أيضاً .. ومن يدري ؟ فلعلّك تشارك ولدك ورفاقه عصيانهم ضد العرش والصليب ..

صالح : أرجو ألاّ نبني مهمتنا على افتراضات قد تكون موهومة ، ثم أنني سأخلف في غرناطة أهلي وأملاكي ..

خمنيث : ماذا تقصد ؟

صالح : ليس صعباً عليكم أن تنزلوا العقاب بالأهل والولد وتصادروا الأملاك

المحقق العام : (بغضب) كن أكثر احتراماً لأصول الوقوف بين يدي قداسة الكاردينال .. يا صالح ..

خمنيث : دعه فليقل كل ما عنده ..

صالح : (متراجعاً) معذرة .. فليس عندي ما أقوله غير التأكيد على أن ضمانات عودتي إلى غرناطة كافية على ما أعتقد ..

خمنيث : (بدهاء) من جهتنا .. هذا وحده لا يكفي ..

صالح : (بدهشة) كيف ؟

خمنيث : تكتب طلباً إلى الهيئة العليا لمحاكم التحقيق بأنك تضع باختيارك الكامل أهلك وأموالك المنقولة وغير المنقولة ، رهناً لدى المحاكم ، لحين عودتك إلى غرناطة ، وبخلافه فإن للهيئة أن تتصرّف طبقاً للأسلوب الذي

تقتضيه المصلحة العامة ..

صالح : (متردداً) ولكن ..

خمنيث : لا مبرّر للتردّد على الإطلاق ، فإن ما عرضته علينا قبل لحظات هو نفسه الذي نقترحه عليك .. والفارق لا يتجاوز ورقة صغيرة بحجم الكف !

صالح : (مقهوراً) لا بأس .. و ..

خمنيث : (مستمراً) يجب أن تكون المسألة واضحة تماماً في ذهنك ، فإن أي قدر من الغموض يشوب إحدى حلقاتها قد يعرض مهمتك للفشل ، وقد تكون نتائجه باهظة يا صالح ..

صالح : بكل تأكيد ..

خمنيث : انتبه جيداً .. فمنذ أن تغادر هذه القاعة بعد دقائق ، ربما ، وفي اللحظة التي تجد فيها نفسك حراً طليقاً ، تنسى تماماً أنك كنت هنا ، أو أنك التقيت الكاردينال خمنيث أو الأسقف ديجا ديسا .. تنسى أيضاً أنك دخلت باحات التحقيق .. أما مسألة التعذيب التي تدّعيها ، فهذه يتحتّم أن تستأصلها حتى من ذاكرتك .. أتدرك ما أقول ؟

صالح : بكل تأكيد ..

خمنيث : لا أريد تأكيداً ، بل أريد وضوحاً .. اسمع يا رجل .. إنك ستذهب إلى هناك كأب حريص على حماية ابنه من الضياع .. وربما الموت .. حريص أيضاً على استثمار ثروة آبائه وأجداده .. وأن يعيش حياته في بلده غرناطة بهدوء ..

صالح : هذا ما أتمناه ..

خمنيث : (مستمراً) شيء واحد فقط يجب ألاّ تنساه .. أنك عدت إلى حظيرة الرب وتركت إلى الأبد دينك القديم باختيارك الكامل ، ودونما أي قسر أو إرغام من أية جهة كانت على الإطلاق .. أتفهمني ؟ وأن عودتك هذه هي الوضع الطبيعي للأشياء .. هي تعديل الوقفة الخاطئة .. هي الحق الذي ليس وراءه سوى الضلال .. وأنك جئت للقاء ابنك ، وربما بعض رفاقه ، ليس فقط لإقناعهم بالكف عن مغامراتهم الطائشة وإنما لكي يفيئوا هم الآخرون إلى حظيرة الإيمان .. وأنهم – حينذاك – سوف لا يحمون أنفسهم – فقط – من الضياع .. ولكن أن يعودوا إلى بلدهم لكي يحيوا فيه حياة طيبة لا يكدرها شيء ..

صالح : سأبذل جهدي يا قداسة ال– ..

خمنيث : (مستمراً) أعتقد أن كلامي واضح بما فيه الكفاية (يتمطى قليلاً) أوه .. لقد أرهقتني يا رجل وأخذت من وقتي الكثير (يهمّ بالنهوض) سأغادر مكاني الآن لمتابعة العديد من المهام العاجلة التي تنتظرني ، وستكتب أنت الطلب الذي تحدثنا عنه بخصوص الرهن ، وتقدمه إلى الدون .. هل ثمة شيء تريد أن تقوله ؟

صالح : المدة الزمنية التي ستعطونها لي لأداء مهمتي هذه ..

خمنيث : (يفكر قليلاً) ثلاثة أيام تكفي ؟ وبالمناسبة فإن البشرات ليست بعيدة ، كما تعلم ، إنها على مرمى حجر من غرناطة .. ألا تكفيك ثلاثة أيام ؟

صالح : الطريق ليس طويلاً .. ولكن المهمة محفوفة بالمكاره ، وهي ليست سهلة على أية حال .. فماذا لو ترك لي الخيار في تحديد الزمن .. إنه في الحقيقة رهن بقدرتي على إقناعهم .. وبمدى استعدادهم لقبول وجهات نظري ..

خمنيث : (وهو يغادر المكان) سأعطيك أسبوعاً بكامله ، وستجدني بانتظارك ها هنا يوم الاثنين القادم .. ولعلك تكون .. (يتردّد في إتمام عبارته) فمن يدري ؟ (يغادر المكان)

المحقق العام : هيّا أكتب الطلب وأعطني إياه ، فأنا الآخر متعب إلى حدّ الإعياء وأمامي جيش من الكفرة ينتظر الاستجواب ..

الفصل الثالث

المشهد الأول الزمن : ٩٠٥هـ/١٤٩٩م

المكان " مقرّ زعماء الثورة في أطراف مدينة غونجار عند سفوح جبال البشرات ..
يرى (الابن) وهو يتحلّق مع ثلّة من إخوانه حول خارطة للمناطق الممتدة إلى الجنوب من غرناطة ، بما فيها جبال البشرات ، والهضبة الوسطى ، ومدينة غونجار نفسها ..
يدخل أحد الحرّاس ويهمس في إذن الابن "

الابن : (ينتفض قائماً) أمتأكد أنت ؟

الحارس : إنه يصرّ على ذلك (يمدّ يده إلى جيب سرواله ويخرج خاتماً) وها هو ذا خاتمه .. أعطانيه قائلاً : هذا يكفي .. إنه يعرفه جيداً ..

الابن : (يتناول الخاتم ويتمعن في نقوشه) (للحارس بلهفة) دعه فليدخل .. أسرع ..

صالح : (يدخل على وجل وآثار السفر والإعياء تبدو على ملامحه .. يحدّق في المكان ثم ما يلبث أن يرى ابنه فيهرع إليه باسطاً ذراعيه) ولدي !
(يخرج سائر المجتمعين)

الابن : (وهو يحتضن أباه بقوة) أبتاه ..

صالح : (وهو لا يتمالك من البكاء) أخيراً .. يا .. ولدي ..

الابن : (بحزن) تلك هي أقدار الله .. ولا رادّ لأمره ..

صالح : أسبوعان فحسب .. ولكنهما الدهر ..

الابن : (بلهفة) حدّثني يا أبتاه .. ما الذي جرى ؟ وكيف تمكنت من الوصول إلى هنا ؟

صالح : قليلاً من الماء أبلّ به ريقي .. ولسوف أجيبك على كل ما تريد ..

الابن : (ينتبه) معذرة يا أبتاه .. إن بمقدورك أن ترتاح قليلاً (يشير إلى أحد المقاعد ثم ينادي أحد الخدم على كوب من الماء وهو يتمعن في وجه

أبيه) لقد تغيرت كثيراً !

صالح : الشكر للرب على أن أبقاني حياً حتى هذه اللحظة .. إنها إرادته ..

الابن : (ينظر إليه دهشاً دون أن يقول شيئاً) ..

صالح : (مستدركاً) الحمد لله أولاً وأخيراً ..

الابن : إذا شئت يا أبتي أن ترتاح قليلاً فلك ذلك .. وإذا استطعت أن تأخذ قسطاً من النوم فأفعل فإن السفر إلى البشرات في الظروف الاعتيادية ليس سهلاً، فكيف والأمر على ما تعرف ؟

صالح : (وهو يمسح فمه من آثار الماء) ليس ثمة وقت للراحة .. لقد جئت إلى هنا في مهمة عاجلة ، وعليّ أن أرجع مساء هذا اليوم

الابن : (بدهشة) إلى أين ؟

صالح : غرناطة طبعاً ..

الابن (يصرخ) غرناطة ؟ وهل بمقدورك أن ترجع إلى هناك ؟

صالح : هدّئ من روعك قليلاً يا ولدي وسأوضح لك كل شيء ..

الابن : ولكن ..

صالح : الأهل والأولاد مرتهنون هناك ..

الابن : ماذا ؟

صالح : رجال التحقيق .. الكاردينال خمنيث نفسه ..

الابن : أفصح يا أبتاه فانني لا أكاد أفقه شيئاً ..

صالح : أرغمني على رهنهم هناك حتى يضمن عودتي ..

الابن : فلماذا جئت إذن ؟

صالح : ها هو ذا بيت القصيد !

الابن : هيّا .. أسرع .. فإنني أريد أن أعرف كل شيء ..

صالح : (بعد تردّد) أرسلوني لكي أبذل جهدي في إقناعك

الابن : (بعصبية) بم ؟

صالح : إنك تعرف يا ولدي عاطفة الأبوة ، وتعرف أيضاً برّ الأبناء بالآباء

الابن : أعرفهما جيداً .. ولكن ..

صالح : جئت لكي أنتشلك من الدمار .. أنقذك من الورطة التي أوقعت وأصحابك أنفسكم فيها .. إنها مغامرة طائشة يا ولدي .. ولن تكون نتيجتها سوى الهلاك ..

الابن : (يصرخ) أبتاه !

صالح : لن يكون بمقدور ثلّة من المتمردين أن يقفوا بوجه المملكة والكنيسة .. ان سكينهما حادة يا ابني وهي تتلمظ لقطع الرؤوس .. وقد رأيت ما فعلوه بغونجار !

الابن : أهذا هو ما أرسلوك من أجله ؟ كنت أتساءل كيف سمحوا لك بالوصول إلى هنا ؟ و ..

صالح : (مقاطعاً) بذلت المستحيل من أجل لحظة كهذه أريح فيها ضميري وأقنعك بالكف عن اللعب بالنار ..

الابن : أنت من ينصحني بهذا ؟ لا حول ولا قوّة إلا بالله ..

صالح : فرديناند وايزابيلا مصرّان على تنفيذ كلمتهما .. ومن ورائهما الكنيسة والبابا .. وبين أيديهما مملكة تمتد من البحر إلى البحر ، وتحت تصرّفهما الجيش ومحاكم التحقيق ..

الابن : هذا كلّه أعرفه جيداً ، فلست من يعلّمني إياه ..

صالح : (مستمراً) الذين قالوا لهما : لا ، جرّدوا من أملاكهم ، وسيقوا إلى أقبية التحقيق ، وماتوا عشرين مرة قبل أن يغيّبوا في التراب ..

الابن : هذا كلّه لا يبّرر ..

صالح : (بتوسّل) أتريد لأبيك أن يلقى المصير نفسه ؟

الابن : أرى أنك تتكلم بمنطق الطاغوت .. فلو سلّمنا بذلك – ابتداء – فإن الجهاد يصير مغامرة طائشة ، وحاشا لله ..

صالح : هنالك حالات يا هاشم تفوق كل تصوّر .. حالات يصير معها الجهاد مستحيلاً ، والمقاومة عبثاً لا جدوى منه ..

الابن : إنك تطرح أموراً خطيرة .. وأخشى أن ..

صالح : (غير ملتفت) ليس الأهل والأولاد فحسب ، ولكنها ثروة الآباء والأجداد .. لقد كدحوا وهم يبنونها عشرات السنين .. هل تقبل أن أضيّعها دفعة واحدة؟

الابن : لا حول ولا قوة إلاّ بالله !

صالح : (وهو ينظر في فضاء الردهة) الحدائق والبساتين والأنهار التي تجري من تحتها ، يصعب عليّ أن أقدّمها لقمة سائغة لرجال التحقيق ..

الابن : هنالك ما هو أغلى من هذا كلّه .. إنه وعد الله بالجنة ..

صالح : (بتردّد) مع ذلك .. فإن الدفاع عن المال قد يرتفع إلى مستوى الشهادة ..

الابن : (يضحك) هذا لمن يقاتل دونه المغتصبين ..

صالح : وها أنا ذا أقاتل لحمايته .. ولكن بأسلوبي الخاص !

الابن : (مواصلاً ضحكه) وهل ثمة أسلوب خاص في محنة كهذه ؟

صالح : (برجاء) هذا ما جئت من أجله ..

الابن : إذن فإنهم قد أرسلوك لكي تقنعني ؟

صالح : بالضبط ..

الابن : وإذا رفضت طلبك ؟

صالح : إنك ابني ، وليس من الهيّن عليك أن تردّ رجائي ..

الابن : إنها يا أبتي مسألة أكبر بكثير من علاقة برّ بين الابن والأب .. إنها قضية الإيمان .. والحق .. والحياة .. ولن يرضي الله ورسوله أن نفرط فيها قيد ذراع ..

صالح : في الوضع الذي نحن فيه .. كل شيء ممكن .. وإذا ضاق الأمر اتّسع !

الابن : أعوذ بالله .. ولكن قل لي ما هي شروطهم ؟ أو بعبارة أدق : ما الذي سنقبضه منهم إذا استجبنا لعرضهم الذي جئت من أجله ؟

صالح : (بفرح) مزايا كثيرة لا يحصيها عدّ !

الابن : مثلاً ؟

صالح : استرداد الأهل والأولاد ..

الابن : (وهو يمدّ شفتيه بازدراء) وبعد ؟

صالح : وحماية الأموال والضياع ..

الابن : وبعد ؟

صالح : (يقترب من ابنه ويحتضنه بحنان) والأهم من ذلك أن ترجع إلى أبيك ، لكي نستأنف حياتنا الآمنة من جديد ..

الابن : والأخوة الذين يعرّضون أنفسهم للموت في كل لحظة ؟ الرجال الذين يستشهدون ؟ العقيدة التي تقتلع من جذورها ؟ الدين الذي تفترسه الكنيسة بلا رحمة ؟ عشرات الآلاف من المسلمين الذين ضاعوا في أقبية محاكم التحقيق ؟ قل لي يا أبتي كيف يهنأ لك بال وأنت تعيش آمناً في ضياعك وبساتينك ومن حولك الأهل والأولاد .. واخوانك المضطهدون في غرناطة وقرطبة واشبيلية وطليطلة يتعرضون على أيدي القسس لأبشع عملية قسر مذهبي شهدها تاريخ الإنسان ؟ (يصرخ) قل لي كيف ؟

صالح : (تزيغ نظراته كمن يتذكر) من أجل هذا جئتك يا ولدي !!

الابن : (بدهشة) ماذا ؟

صالح : لقد عاش أبوك أياماً كالدهر في أقبية التحقيق .. اللحظة الواحدة فيها تعادل عمراً بكامله .. لا أستطيع أن أحكي لك كل شيء ، فإن الوقت يسرقنا ، وعليّ أن أرجع إلى غرناطة بعد ساعة أو ساعتين ..

الابن : ما ستقوله أعرفه جيداً .. فالتقارير تصلنا يوماً بيوم .. وما يفعله رجال التحقيق الذين يدعمهم فرديناند وايزابيلا .. نعرفه كذلك .. ونعرف كيف نرد عليه بما تيسّر لنا من قدرات .. و ..

صالح : (مقاطعاً) لن أسمح لأهلي وأولادي أن يذوقوا هناك ما ذقته .. إنها حالة تعجز عن وصفها الكلمات ..

الابن : وتدع عقيدتك تذبح يا أبتاه ؟

صالح : سيحميها الرب ..

الابن : (بدهشة) ماذا ؟ (ثم كمن ينتبه) أبتاه .. أخشى أن تكون قد ..

صالح : (بحزن) نعم يا هاشم ..

الابن : (يرفع صوته) وأصبحت نصرانياً ؟

صالح : (بنبرة الحزن نفسه) إلاّ أن تتقوا منهم تقاة !

الابن : (يصرخ) لقد ارتددت عن دينك يا أبتاه ..

صالح : ليس بالضرورة .. فهو الإكراه الذي يظل معه القلب مطمئناً بالإيمان

الابن : لا حول ولا قوة إلاّ بالله ..

صالح : ما شاء الله كان ..

الابن : والأهل ؟ والأولاد ؟ والذراري ؟

صالح : يتظاهرون هم الآخرون !

الابن : أخ ..

صالح : ما دون ذلك الموت يا هاشم ..

الابن : إنك تتكلم بلغة لم يأذن بها الله ورسوله ..

صالح : (مستمراً) ولن أسمح لهم بأن يموتوا قبالتي وأنا على قيد الحياة ..

الابن : (بازدراء) وجئت لكي تردّني إلى الحظيرة ، وتحميني أنا الآخر من الموت؟

صالح : تلك هي أغلى أمنية في حياتي ..

الابن : (مواصلاً) وتضع بيني وبين الشهادة بحراً من الخطايا والآثام ؟

صالح : ليس بهذا المعنى ..

الابن : وتحرمني من الجنة من أجل حفنة تافهة من سنوات المذلّة والهوان ، أعيشها معك هناك في بساتين الآباء والأجداد ؟!

صالح : لا تبالغ يا هاشم .. وأرجو ألاّ تسمح لهواجسك بأن تغيّب عنك المرئيات فتضيع ..

الابن : صفقة خاسرة والله يا أبتاه .. فبئس البيع ..

صالح : (في حيرة من أمره) ما الذي تريدني أن أقوله لهم إذا رجعت ؟ أيهون عليك أن يعود أبوك إلى أقبيتهم كرة أخرى ؟ ثم ماذا عن الأهل والأولاد الذين رهنوا هناك ؟ (برجاء) هاشم .. أرجوك .. أتوسّل إليك أن تحكّم عقلك وأن تكون واقعياً .. فاننا نعيش حالة لا خيار فيها على الإطلاق ..

الابن : (بازدراء) بعدها .. تمضي بي خطوة أخرى فتقول : حكّم عقلك يا ولدي وكن واقعياً ، وأعلن نصرانيتك كي تنقذ نفسك من الهلاك .. دون أن تعلم، وخداع الحياة الدنيا وزخرفها ، قد عتّم عليك الرؤية ، أن التنصّر نفسه هو الهلاك بعينه ..

صالح : ولكن الألوف من إخواننا ومعارفنا قد تنصّروا .. فلست بدعا من الأمر ..

الابن : أخ .. ها أنت ذا تقولها دون ذرة من حياء أمام الله ورسوله ..

صالح : رحمته وسعت كل شيء !

الابن : (يصرخ) إنك بهذا المنطق الملتوي لا تضيّع نفسك فحسب ، ولكنك تضيع المسلمين الذين ظلوا على عقيدتهم ، ولا تبرّر فعلتك لنفسك فقط ، بل تدفع الآخرين إلى تبريرها .. لشدّ ما أخشى عليك من سخط الله !

صالح : (بأسف) لم أكن أتوقع كل هذا الذي لقيته منك .. ومع ذلك ..

الابن : ومع ذلك لا زلت تطمع بأن تردّني إلى الحظيرة ، وأن ترجع بي لكي أركع عند أقدام خمنيث ورجاله الذين نخرهم السوس وتغلغل العفن في عروقهم وأسرتهم الشهوات : ها أنا ذا قد عدت لكي اعترف بخطيئتي. وأطلب الرحمة والمغفرة .. فهل تقبل يا نيافة الكاردينال عودة الابن الضال إلى أحضان الكنيسة (مبتعداً عن أبيه) والله يا أبتي لن أفعل هذا ولو قطعّوني إرباً ..

صالح : هوّن عليك يا هاشم ، فما جئت لكي أعنتك أو أشقّ عليك ..

الابن : (يبتعد أكثر) ارجع إليهم وقل لهم إن هاشم وإخوانه يعرفون جيداً أنكم أيها النصارى لا عهد لكم ولا ذمة .. الملك والملكة والكاردينال والبابا نفسه .. عشرات العهود والمواثيق أقسمتم بالرب والروح القدس أنكم ستلتزمون بها .. ثم ما لبثتم أن نقضتموها ونكثتم خيوطها خيطاً خيطاً .. قبل أن يجف الحبر على الورق .. قل لهم أيضاً : إننا لن نستبدل الذي هو أدنى بالذي

هو خير .. وخسئت الصفقة التي تبيع عقيدة التوحيد الحقّ بخرافة التثليث الباطلة .. أعلمهم ، إذا كنت تملك الجرأة ، أننا سنقاتلهم حتى آخر رجل فينا .. فان نقضي شهداء تحت شعار (لا إله إلاّ الله) خير لنا ألف مرة من أن نعيش أذلاء تحت ضلال الصليب .. وأتل عليهم إن كنت تتذكر كتاباً اسمه القرآن : **{إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }**(التوبة ، الآية ١١١).

صالح : (وهو يهمّ بالخروج) لا حول ولا قوة إلاّ بالله !

الابن : لم أعد ابنك بعد اليوم يا صالح ، وإنني أعلن براءتي منك .. قل لهم هذا .. أحلف لهم بالرب وبروح القدس لعلهم لا يؤاخذونك بجريرتي ..

(يخرج الأب)

– ستار –

المشهد الثاني الزمن : ٩٠٥هـ/١٤٩٩م

المكان " المقر السابق نفسه .. يرى هاشم وهو يذرع المكان بعصبية ، بادئ الهم والإعياء .. لحظات ويتقاطر زعماء الثورة .. ".

الثوار : (معاً) ماذا وراءك يا هاشم ؟

هاشم : (وهو يجلس متهالكاً على الأرض) لا شيء ..

أحدهم : وابنك ؟

هاشم : ورقة ماكرة .. أليس كذلك ؟ (يتنهّد) ليس ثمة لعبة لم يمارسها خمنيث بغض النظر عن معاييرها الإنسانية .. ولكن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ..

ثائر آخر : ما الذي أراده الكاردينال من إرسال أبيك ؟

هاشم : لعبة استدراج أخرى .. ليس إلاّ ..

الثائر : ولكن .. ألم يجد غير أبيك لممارسة لعبته هذه ؟

هاشم : على العكس .. ففي ظروف محرجة كهذه يمكن أن يكون الأب هو المطلوب

الثائر : كيف ؟

هاشم : إنه يملك قدرة أكبر على التأثير .. لقد أراد الشيطان أن يخترقني به .. إنه يحمل وجهيْ المسألة .. وله أن يدخل من أيّهما يشاء ..

الثائر : وهل جاء بمهمة محدّدة ؟ عرض شروطاً من قبلهم ؟

هاشم : لقد عُذب بما فيه الكفاية في سراديب محاكم التحقيق .. اكتوى بنارها التي يلين لها الحديد .. ووجد نفسه أخيراً يتخلى عن دين آبائه وأجداده ويعتنق النصرانية !

الثوار : (معاً) أعوذ بالله ..

هاشم : كان بمقدوره أن يتعرّى أمامي .. أن يريني جسده وأن يتحدّاني أن أجد موضعاً ما ، مهما ضؤلت مساحته ، لم ينله العذاب

أحد الثوار : أبوك ليس وحده على أية حال .. فهناك ..

هاشم : (مقاطعاً) لم يشأ أن يكشف عن جسده لأنني كنت أعرف هذا جيداً ..

هنالك حالات تفصح عن نفسها بعيداً عن حواسنا ، أو بمعزل عنها .. وقد تكون أكثر وضوحاً عندما نغمض أعيننا أو نصمّ آذاننا ..

الثائر : وهل نقل إليك شيئاً ما ؟

هاشم : كان هذا أحد الوجهين اللذين أريد أن يدخل عليّ بهما .. أيام العذاب لم تكن أياماً ولكنها قرون طوال .. لم أكد أعرف الرجل .. لقد تغيّر تماماً .. لولا أن خفقان القلب قال لي ، وهو يخطو إليّ على استحياء ، إنه أبوك

أحد الثوار : مهما يكن من أمر فإنها فرصة طيبة أن يتاح لك لقاء كهذا .. ففي الوضع الذي نعيشه يغدو مستحيلاً أن تعثر على ما تحلم به أو تتمناه .. إن لقاء الابن بأبيه – في حالة كهذه – هدف عزيز .. ولكن ..

هاشم : (مقاطعاً) لم يكن على استعداد أبداً لتلقي سوط آخر من العذاب أو تحمّل حلقة أخرى من مفردات السوء التي تنذر بها محاكم التحقيق .. أصبح في نهاية الأمر أشبه بكأس الماء الذي امتصّ من الملح ما فيه الكفاية فلم يعد قادراً على إذابة ذرّة واحدة .. لقد كان لسان حاله يفصح عن هذا ، وكأنه جاء ، أو دفع ، لكي يقول لي : ارحم أباك يا هاشم وأقبل ما يعرضه عليك وإلاّ كنتُ سبباً في ضياعه .. (يصمت بحزن) على أية حال ليس هذا سوى أحد وجهيْ المسألة .. الترهيب .. ولكن المؤمن الحقّ يتعامل مع الأمور بمنطق آخر .. إنه لا يدين بالطاعة إلاّ لله ورسوله .. ولن يكون بمقدور قوة في الأرض ، إذا تشرّب هذا الإحساس حتى النخاع ، أن تنحرف به عن الطريق ، حتى ولو كان الذي يناديه هو أبوه نفسه !

أحد الثوار : وهل قلت له هذا ؟ هل أقنعته بأنك تتعامل بلغة أخرى كان قد نسي أبجدياتها منذ نزع جلده المسلم !

هاشم : (يبتسم) جلده ؟ أخشى أن يكون قد استبدل بقلبه قلباً آخر ..

الثوار : (معاً) لا حول ولا قوة إلا بالله ..

هاشم : لم يصل معي إلى شيء بطبيعة الحال .. رغم أنه حاول أن يخزّ أعصابي .. وجداني .. عبر بوابة الشفقة .. ولكنه كان مخطئاً .. ولقد أخفق تماماً ..

أحد الثوار : والوجه الآخر ؟

هاشم : الوجه الآخر ؟ (يصمت قليلاً) الترغيب طبعاً ..

الثائر : بم يرغّبك وأنت قد اخترت منذ البداية أن تضع الدنيا تحت قدميك ؟

هاشم : هذه هي المشكلة .. إنه ها هنا أيضاً نسي لغته الأصلية .. مفرداتها

التي صاغها هذا الدين .. وجاء لكي يتحدث معي بلغة جديدة لا أكاد أفهمها ..

الثائر : وما الذي أراد أن يقوله لك .. أو يغريك به ؟

هاشم : أملاكنا وضياعنا في غرناطة .. يخشى عليها من المصادرة والضياع .. (يضحك بمرارة) يريدني أن أقنعكم بإلقاء السلاح ليس لحماية أرواحكم فقط، ولكن لحماية الأملاك والضياع هناك عند الأطراف الشمالية لحيّ البيازين ..

أحد الثوار : وكيف دخلت في عقله لعبة كهذه ؟ كيف اقتنع بالفكرة وجاء لكي يعرضها عليك ويقنعك أنت الآخر بها .. أنت بالذات ؟!

هاشم : (بحزن) محاكم التحقيق وأساليب رجالها يمكن أن تقنعك بأن الأسود هو الأبيض .. إن العذاب الذي تلقّاه أبي جعله يفقد القدرة على التمييز بين الأشياء .. يتحدث عن الباطل كما لو كان هو الحق ! وها هو قبل لحظات يعرض علي ، ويتوسّل بي أن أكفّ وإياكم عما أوهم به أنه مجازفة لا تؤمن عواقبها .. أن نلقي السلاح وندخل لعبة جديدة خاسرة مع الكاردينال الذي لا كلمة له ولا عهد .. لا لشيء إلاّ من أجل حماية أملاكنا وضياعنا هناك !

الثائر : مسكين ..

هاشم : على أية حال صرفته بالتي هي أحسن .. لم أحاول أن أقسو عليه .. وأقسم بالله ان لو كان غير أبي يتقدم إليّ بهذا العرض ، مبعوثاً من شيطان الكنيسة الخبيث في غرناطة ، لفصلت رأسه عن جسده .. (يصمت كأنه يتذكر شيئاً) لقد أنسانا الحديث مناقشة المستجدّات التي يشهدها الميدان ، واتخاذ الإجراءات المناسبة ..

أحد الثوار : غونثالو دي قرطبة ، قائد المملكة ، لم يجد في غونجار بعد اقتحامها غير النساء والشيوخ والأطفال ، فذبحهم جميعاً ..

هاشم : (بحزن) هذا ما كنا نتوقعه .. وقد تسألني : أما كان بمقدورنا أن نتفادى هذا المصير المحزن بشكل من الأشكال ؟

الثائر : بالتسليم بمطالب الملكة والكاردينال ؟

هاشم : ليس هذا ما قصدت إليه ..

الثائر : فهل ثمة منفذ ما للخروج من المستحيل ؟

هاشم : لن أقدر أبداً على تقديم جواب مقنع حتى ولو أعملت ذهني عشرين سنة

أخرى .. وبالتالي فإن الإنسان قبالة حالات كهذه قد يلجأ إلى ما يمكن تسميته لعبة الاحتمالات ..

الثائر : مثلاً ؟

هاشم : أن نفترض بأن في قلوب خصومنا بقايا من الإنسانية التي افترستها الكنيسة وأهدرها العرش .. مجرد بقايا .. وإلاّ تحول الإنسان إلى وحش كاسر يكشف عن أنياب تتنزّى اشتهاء .. فهل يبيح التديّن والتمدّن معاً .. الكنيسة والعرش لنفسيهما أن يبلغا هذه الحالة ؟

الثائر : هذا بالذات ما نراه ونلمسه ونكتوي وذرارينا بناره .. ولن يكون بمقدورنا أن نخدع أنفسنا عما هو كائن .. بتمنّي ما يمكن أن يكون ..

هاشم : (بحزن) هذا حق ولن أناقشك فيه .. ولكن قل لي : إذا لم يكن بمقدورنا أن نتكئ على هذا الاحتمال الضعيف .. هذا الهامش المتبقّي في كينونة الإنسان ، والذي قد يقدم وعداً ما لحماية الإنسان نفسه .. بقايا الإنسان .. فما الذي كنا سنفعل ؟

الثائر : (يمعن التفكير ولا يجيب) ..

هاشم : (ملتفتاً إلى الآخرين) وأنتم أيها الأخوة ؟

الثوار : (يديرون رؤوسهم حيرةً ولا يجيبون) ..

هاشم : هذا ما أردت أن أقوله ، فلقد وضعتنا قوات الخصم التي تفوق قدراتنا بكثير ، والتي أطبقت تماماً على غونجار ، بين احتمالين وكلاهما مرّ .. أن نقاوم حتى نفنى عن آخرنا ، ونترك الساحة تماماً لايزابيلا وخمنيث ، يصولون فيها ويجولون ، ويرغمون من تبقى على الهجرة ، أو التنصير ، أو القتل ، وإما أن ينسحب الرجال إلى أماكن أكثر حصانة لمواصلة المقاومة .. تاركين النساء والشيوخ والأطفال .. ولقد اخترنا الحل الأخير .. لم يكن في اليد حيلة .. فهناك في لحظات معينة من التاريخ تجد نفسك مرغماً على أن تضحّي بشيء عزيز عليك ، من أجل مواصلة الطريق ، وإلاّ اضطررت لأن تحمله على ظهرك ، وقد يرغمك هذا على الوقوف .. لابدّ من مواصلة الطريق وإلاّ توقّف كل شيء نبيل في هذا العالم .. ومع ذلك ، أعود مرة أخرى للتذكير بأن المرء ، وهو يجتاز الممرّ الضيّق هذا ، قد يؤملّ بفرصة ما .. ايماضٍ مشعّ يخفق بعيداً ، تحت النار والرماد .. يدلّ على أن خصمك ، وهو يتحفزّ للانقضاض عليك ، ليس مجموعة من الضواري والضباع التي أفقدها الجوع رشدها ، وأنه قبل

كل شيء إنسان ، ينتمي إلى فصيلة أخرى غير فصيلة الحيوان (يتنهّد) من يدري ؟

أحد الثوار : (متنهداً هو الآخر) ولكن هذه الفرصة لم تأت ، وذبح غونثالو وضواريه النساء والشيوخ والأطفال ، ثم ما لبثوا أن هدموا المنازل على رؤوس ساكنيها وأحرقوا غونجار عن بكرة أبيها ..

هاشم : (يهزّ رأسه) دائماً كانت لحظة الانتصار هذه هي الفارق الحاسم بيننا وبينهم .. لقد تلقينا تعاليم الآباء والأجداد ومضينا بها حتى ونحن نتعامل مع الوحوش والضواري .. لم تحدثنا أنفسنا يوماً أن نقتل شيخاً أو نذبح امرأة أو نغتال طفلاً بريئاً .. ولم نفكر لحظة بهدم المنازل أو إشعال النار في المدن .. حتى الزرع والضرع كانت تجد فينا حضناً دافئاً لكي تنمو وتواصل البقاء .. أما هم (يتنهّد) فلقد مضوا ، منذ لحظات تنصّرهم الأولى ، في هذه القارة المترعة بالضيق والكراهية .. والتي تعشق القتل والدم ، مضوا في طريق معاكس تماماً .. لقد مررت قبل ساعات بمحاذاة غونجار المذبوحة المحترقة .. فلم أجد إلاّ النار والرماد .. لم يبق ثمة مخلوق .. أو كائن واحد .. واحد فقط ، ينبض بالحياة .. فلا حول ولا قوة إلاّ بالله ..

أحد الثوار : خفّف الوطأ على نفسك يا هاشم فاننا لم نأل جهداً ..

هاشم : أعرف ما الذي ستقول .. لقد حصدنا منهم الكثير وهم يحاولون اجتياز الخنادق التي أحطنا بها غونجار وغطيناها بالزرع والقش ..

الثائر : لقد فوجئ غونثالو وأسقط في يده ، وعمّت الفوضى قواته ، ولم يتمكن من استعادة النظام ، واستئناف فرض الحصار على المدينة ، إلاّ بعد أن جاءته الإمدادات ، وبعد أ حصدنا من جنده جماعات أخرى ..

ثائر آخر : ولكن غونجار ليست نهاية المطاف .. فها هم الآن يتقدمون إلى بقية المواقع الثائرة لكي يفعلوا بها ما ..

هاشم : (مقاطعاً) ولكنهم لن يستطيعوا أن يصلوا إلى أهدافهم بسهولة .. ليس لوعورة المنطقة فحسب .. فهناك ما هو أشد وأنكى .. لقد زرعنا الكمائن في كل مكان ، ولسوف يدفعون في تقدّمهم ثمناً كبيراً .. إن عقدة خنادق غونجار المغطاة بالزرع والقشّ ، لا تزال تؤرقهم ولن يجازفوا بالتعرّض لخسائر أخرى .. ومن أجل ذلك ، وفي ضوء الأنباء التي قدرت على جمعها قبل ساعات ، فإنهم سيتريثّون لحين وصول المساعدة التي وعدهم

بها الملك فرديناند ، الذي سيجيئ بنفسه هذه المرة على ما يبدو ، ومعه جيش كبير ..

الثائر : إنها فرصتنا على أية حال لتعزيز تحصيناتنا ، ونصب المزيد من الكمائن، وجمع الأموال والأسلحة لشن الغارات على قوات الخصم وقطع خطوط مواصلاته ..

هاشم : ليس هذا فحسب ، بل إن أنباءً طيبة وصلتني عن قرب وصول مجموعات أخرى من إخواننا النازحين من غرناطة ، والمواقع المحيطة بها .. ولسوف يمدّ هؤلاء حركتنا بدماء جديدة إن شاء الله ..

– ستار –

الفصل الرابع

المشهد الأول الزمن : ٩٠٥هـ/١٤٩٩م

المكان " غرناطة ..

تبدو خشبة المسرح وقد فصلت إلى قسمين .. على اليمين تبرز مقدمة كاتدرائية غرناطة ، السلّم والرواق والجزء الأمامي من صالة الاستقبال .. إلى اليسار تبدو ساحة المدينة العامة في ميدا باب الرملة ..

في المشهد الأوّل تسلّط الإنارة على الجانب الأيمن ويرى الكاردينال خمنيث وهو يقف على حافة الرواق المفضي إلى السلّم الخارجي .. يتحلّق حوله عدد من القسس من ذوي الرتب الدينية المختلفة .. " .

خمنيث : (وهو يمسّد على لحيته) لن تستأصل شأفتهم إذا ظلّ فكرهم قائماً .. التصفية الجسدية وحدها لا تكفي ..

القس رقم ١ : هذا صحيح يا نيافة الكاردينال ..

القس رقم ٢ : بكل تأكيد .. هذا صحيح يا نيافة الكاردينال ..

القس رقم ٣ : لا أعتقد أن أحداً يناقش نيافتكم في هذا ..

القس رقم ٤ : بالفعل فإن التصفية الجسدية وحدها لا تكفي ..

خمنيث : (يمدّ يده باستياء لكي يسكتهم) لا أريد ببغاوات أيها القسس .. إن الطاعة العمياء قد تضرّ ولا تنفع .. وقد تأتي بنتائج معاكسة ..

القس رقم ١ : هذا صحيح يا نيافة الكاردينال ..

القس رقم ٢ : بكل تأكيد .. هذا صحيح يا نيافة الكاردينال ..

القس رقم ٣ : لا أعتقد أن أحداً يناقش نيافتكم في هذا ..

القس رقم ٤ : بالفعل فإن الطاعة العمياء و ..

خمنيث : (يسكتهم) كفى .. قلت انني لا أريد ببغاوات تردد ما يقال ولا تعي ما تقول .. إن الكنيسة تقف اليوم في منعطف تاريخي خطير .. فاما أن تفرض هيمنتها الكلية على المملكة ، وإما أن تخسر فرصتها إلى الأبد .. ولن

يتحقق هدفها ذاك إلا بإنجاز مطالب اللحظة التاريخية التي تتمركز في بؤرة واحدة : إلغاء الوجود الإسلامي من اسبانيا .. استئصاله من الجذور .. إن جلالة الملك وجلالة الملكة أصبحا الآن طوع أمر الكنيسة .. إنه من حسن حظهما عند الرب ، بكل تأكيد .. ولكن قبل ذلك من حسن حظ الكنيسة .. والتاريخ لا يمنح فرصة مرتين ..

القس رقم ١ : هذا صحيح يا نيافة الكاردينال ..

القس رقم ٢ : بكل تأكيد .. هذا صحيح يا نيافة الكاردينال ..

القس رقم ٣ : لا أعتقد أن ..

خمنيث : (مقاطعاً بعصبية) ألا يسألني أحدكم ما الذي يتحتّم علينا أن نفعله لتنفيذ المطلوب ؟

القسس جميعاً : قل يا نيافة الكاردينال ونحن طوع أمرك ..

خمنيث : (بسخرية) سأضطر لأن أقول .. ليس ثمة حيلة .. ولكنني كنت أريدكم أنتم أن تبدأوا (يرفع صوته بطريقة خطابية) يا حضرات القسس .. يا خدّام كنيسة السيد المسيح .. إن عليكم أن تبذلوا جهداً استثنائياً في جمع تراث المسلمين .. كل ما تقدرون على جمعه. فها هي ذي فرصتنا لتوجيه الضربة الأكثر فاعلية للوجود الإسلامي .. لقد أقنعت فرديناند وايزابيلا بذلك ، ولن أدع الفرصة تفلت من بين يدي ..

أحد القسس : وأين نتجه به يا نيافة الكاردينال ؟

خمنيث : (يشرد قليلاً ويقول بهدوء كما لو كان يحدث نفسه) إذا استطعنا تنفيذ المهمة بالطريقة التي أحلم بها ، فإننا نكون قد وضعنا خطواتنا الحاسمة في الطريق الصحيح (منتبهاً) ماذا تقول أيها القس ؟

القس : (بتردّد) أين نذهب به ؟

خمنيث : عن أي شيء تتحدث يا رجل ؟

القس : (بدهشة) عن تراث المسلمين الذي سنجمعه !

خمنيث : (بنفاد صبر) إلى جهنم !

القس : ماذا ؟

خمنيث : ألم تسمع يا رجل بميدان في هذه المدينة يدعى باب الرملة ؟ ألم تمرّ به يوماً ؟

القس : بالتأكيد

خمنيث : (يعود إلى التمسيد على لحيته) ستضعونه هناك ..

(ينظر القسس بعضهم إلى بعض دون أن يجرأ
أحدهم على النطق بكلمة ..)

خمنيث : (مستمراً) ثم تضعون فوقه أكداس الحطب المتيبّس .. ثم .. طق .. تشعلون فيه النيران ..

أحد القسس : فكرة رائعة وحق الأب !

خمنيث : (كمن يحلم) ستكون رائحة الدخان يومها أطيب من عبق العطر وشذا الريحان ..

قس آخر : ولكن ..

خمنيث : (غير ملتفت إليه) هذه الشجرة الملعونة التي خيّمت بشؤمها في سماء اسبانيا ثمانية قرون وأنبتت أجيالاً من الكفرة أعداء الرب .. آن لها تستأصل من جذورها ..

قس ثالث : رهن إشارتك يا نيافة الكاردينال ..

خمنيث : (مستمراً) ما دام فكرهم قائماً فإنهم سيبرزون في ذراريهم .. سيطلعون من تحت الأرض كما يطلع الشوك والحسك .. وسيجرحون كلمة الرب ! ومن يدري فلعلّهم يستعيدون مواقعهم القديمة .. بعضها على الأقل .. ويومذاك لن ينفع الندم .. والويل للصليب من نداءات أصحاب محمد ..

قس رابع : لن يكون ذلك يا نيافة الكاردينال .. ولن ترجع عقارب الساعة إلى الوراء

خمنيث : بل سترجع .. ولن يرحمنا التاريخ يومها .. وستقول ذراري السيد المسيح وهم يتلقّون سياط الكفرة : لقد غدر بنا الآباء ..

القس الأول : ها نحن وجيوش جرارة من خدّام الكنيسة ننتظر إشارة نيافتك لكي نبدأ المهمة. ولسوف ترى عند ميدان باب الرملة ما تقرّ به عينك ..

خمنيث : حيّاً حيّاً .. وزقاقاً زقاقاً .. وبيتاً بيتاً .. وغرفة غرفة .. لكي لا يظل كتاب واحد بعيداً عن قبضتنا .. أدخلوا حتى القنّي والسراديب .. نقبوا في الكوى السرّية المحفورة في الجدران التي أكلتها الرطوبة والعفن .. إن صحيفة واحدة من كتاب في العقيدة أو اللغة .. ورقة متهرئة تنطوي على آية من القرآن أو حديث لمحمد ، يمكن أن تنفخ فيهم روح المقاومة والاستمرار .. بل انها قد تبعثهم من جديد .. إنني أعرفهم جيداً هؤلاء المحمديون .. لقد قرأت تاريخهم بإمعان .. يملكون القدرة على النهوض ثانية وثالثة وعاشرة في أعقاب كل محنة تأتي على اخضرهم ويابسهم (يصمت قليلاً) أما الآن فإن خمنيث الذي وتلقى بركات البابا .. لن يسمح بتكرار الظاهرة ..

ولسوف يكون الدرس الإسباني للمسلمين فريداً من نوعه (يرفع صوته) أيها الرجال ..

القسس : (معاً) نعم يا نيافة الكاردينال ..

خمنيث : أيها الرجال قولوا لأتباعكم أن يشمّروا عن ساعد الجد ، وأن يبدأوا حملة تفتيش لا ترحم ولا تهادن .. اجمعوا كل ما تقدرون على جمعه من تراث المحمديين : المصاحف ، كتب الحديث والشريعة والفقه .. مصنفات العقيدة والمنطق .. التاريخ والسياسة والعمران .. الفلسفة والكلام .. كل ما ينبض بكلمة الإسلام وتوحيده الذي أعلن أجدادنا القدّيسون الحرب عليه منذ فترة مبكرة .. اهدموا الجدران إذا اقتضى الأمر .. نقبوا عن كتبهم وصحائفهم في كل زاوية أو مخبأ ، انزعوا البلاط عن مواضعه ، فقد يكون تحته مصنّف مما ينفخ روح الاستمرار في الخصم ويعد بالثأر .. لقد أصدرنا حظراً على قراءة القرآن ، وتعلّم العربية ، أو حتى التحدّث بها ، ووضعنا عقوبات تصل حدّ الموت لكل من يخالف ذلك .. ونفذناها .. وانني لأذكركم بواحدة منها : يوم الأحد الخامس والعشرين من يناير من هذا العام ، فيما يسميه المسلمون : الأحد الدامي .. حصدنا ستة وعشرين ألف رأس بتهمة قراءة القرآن وتعلّم العربية أو التحدث بها ..

القسس : (بصوت واحد) لقد كان يوماً عظيماً يا نيافة الكاردينال !

خمنيث : ولكن ذلك لن يكفي .. فما دامت هناك مصاحف وتصانيف تمنحهم التعاليم ، وتبثّ في نفوسهم روح العقيدة التي آمنوا بها ، ومحبة النبي الذي تعلّقوا به إلى درجة العشق ، وسموا جل أبنائهم باسمه ، فإن ذلك لن يكفي .. سيقرأون ما يدعونه كتاب الله في المخابئ والسراديب ، وتحت جنح الليالي المظلمة ، وسيدرسون ما صنفّه لهم الآباء والأجداد في أمور العقيدة والشريعة والسلوك .. إنهم قد لا يجرأون على مقاومتنا بأيديهم ولا حتى بألسنتهم .. ولكن بصلاتهم وصيامهم وسلوكهم المتميّز ودعائهم المكبوت .. بنظراتهم المترعة بالأنفة والاستعلاء ، الممتزجة بكراهية حادة كالسيف .. القديرة على أن تقدّم الوعد للذراري بأن محمداً سيرجع مرة أخرى لكي يحصد رؤوس اتباع السيّد المسيح !

القسس : (بصوت واحد) لن يكون هذا يا نيافة الكاردينال ..

خمنيث : بلى سيكون .. لو أن قبضتنا ارتخت قليلاً .. لو أن أعيننا طرفت لحظة أو لحظتين .. لو أننا لم ننتبه إلى ما يمكن أن تفعله الكلمة ..

أحد القسس : لقد أصبح الهدف واضحاً .. ويمكنكم أن تطمئنوا ..

قس آخر : سنجمع تراثهم كلّه ونضعه أكداساً في الميدان ، ثم نشعل فيه النار .. ولسوف يطلّ علينا السيّد المسيح من فوق ، مباركاً ومهنئاً .. ولسوف يلّوح لنا البابا من بعيد ، لكي يمنحنا إشارة الرضا والغفران !

خمنيث : لقد ذكرّتني أيها القس ، إنه عمل من أعمال الإيمان .. أليس كذلك ؟

القسس : (جميعاً) بكل تأكيد ..

خمنيث : فلينطلق المنادون إذن في كل أحياء غرناطة وأسواقها ودروبها وأرباضها ، يعلمون جماهير الناس بضرورة التوجّه صبيحة الأحد ، الثالث عشر من يونيو لمشاهدة واحد من أجل أعمال الإيمان وأكثرها خطورة .. المحرقة الكبرى التي ستأتي على تراث أعداء المسيح .. وتجعله رماداً .. هيّا ..

(يصفق بيديه بينما يهم القسس بمغادرة المكان)

خمنيث : لحظة واحدة .. أريدكم أن تحتفظوا ببعض المصنفّات المهمة الخاصة بالطب والكيمياء والرياضيات .. بمائتين أو ثلاثمائة فقط .. لا أكثر .. فانني قد أسدّ بها النقص في الجامعة التي أنشأناها في مدينة قلعة هنارس. ومرة أخرى : الطب والكيمياء والرياضيات فقط .. مفهوم ؟

القسس : (معاً) مفهوم يا نيافة الكاردينال

(يغادرون المكان)

(لحظات من التعتيم .. ثم ما تلبث الإنارة أن تنصبّ على الجانب الأيسر من خشبة المسرح ، حيث يرى جانب من ميدان باب الرملة عند الساحة العامة في غرناطة وقد كدّست فيه كتب التراث الإسلامي أكداساً..

جماهير النصارى تحيط بالساحة من جهاتها كافة ، وبكثافة ملحوظة .. والصراخ يتعالى ، والتدافع بالأيدي والمناكب يفصح عن رغبة الجمهور في الاقتراب أكثر من حافات الساحة لكي يروا النار التي ستشتعل بعد قليل في أكداس الكتب ..

في طرف بعيد بعض الشيء أقيمت منصّة صُف فيها عدد من المقاعد الوثيرة .. ويرى الكاردينال خمنيث وعدد من كبار رجال الكنيسة يجلسون إلى جواره .. وبعيداً عنه بعض الشيء يجلس كل من كونت تنديا ، القائد والحاكم العام السابق لغرناطة ، وإلى جواره هرناندو دي تلاميرا الأسقف السابق للمدينة .. وفي الساحة نفسها يرى حشد كبير من القسس وهم

يركضون ويتقافزون هنا وهناك .. وبعضهم يدفع الجماهير إلى الوراء كي لا تمسّها النار .. بينما يضيف بعضهم الآخر أكداساً من الحطب المتيبّس فوق تلال الكتب المبعثرة هناك ..

خمنيث : (ينهض قائماً فينهض معه الجالسون على المنصة كافة .. يجيل نظراته قليلاً في الجماهير المحتشدة قبالته ، فيكف اللغط والصراخ شيئاً فشيئاً وما يلبث السكون أن يخيّم على المكان) أيتها الجماهير المؤمنة .. يا أبناء السيّد المسيح .. إنه لشرف عظيم لنا ولكم أن نحضر هذا العمل الجليل من أعمال الإيمان التي تنفذها كنيستنا الأم ، ويباركها البابا ، ويدعمها جلالة الملك والملكة .. وأنتم تعلمون جيداً أن فكر الكفرة المحمّديين وتراثهم ومعرفتهم ، ما دامت قائمة في الساحة الإسبانية ، فإنها ستظل تنفخ فيهم روح المقاومة والاستمرار ، وتحدّي تعاليم الكنيسة والمملكة ، وقد يقود هذا إلى ردّة لا تحمد عواقبها .. فمن أجل استئصال بقايا الوجود المحمدّي الضال من الأرض لابدّ من اقتلاعه من الجذور .. من فك ارتباطه بالتاريخ .. وها هي ذي الجذور أمامكم .. تراثهم المضلّل الذي سهر رجالنا على مدى أكثر من شهرين لجمعه من مظانه ومخائبه وتكديسه هنا لإحراقه وتطهير الأرض من شروره .. فباسم الأب والابن وروح القدس .. وببركات البابا ، ودعم الملك والملكة ، نأمر بإشعال النار، ولتذهب ضلالاتهم إلى الجحيم ..

(يتعالى صراخ الجماهير ، بينما تهرع فرق القسس إلى أطراف الميدان وتبدأ بإشعال النار .. لحظات وتندلع ألسنة اللهب والدخان)

كونت تنديا : (لجاره الأسقف هرناندو دي تالافيرا) قد تدهش أيها الأسقف إذا قلت لك أنني غير مرتاح لهذا الوضع !

هرناندو : ربما أكون أكثر منك استياءً .. إذ أحسّ بشيء من الانقباض ..

تنديا : (مع نفسه) ما هكذا تورد الإبل يا كاردينال !

هرناندو : لطالما أسديت له النصح فلم يستمع إليَّ .. والآن فإن بيني وبينه شيئاً من الجفاء بسبب هذه المسألة ..

تنديا : والملك ؟ والملكة ؟ ألا يتحتّم أن يكونا أكثر حكمة وأناة ؟

هرناندو : (يمطّ شفتيه ازدراءً) يبدو أنه وضعهما في جيبه !

تنديا : (يتنهّد) لو ترك الأمر لي ولك لكان الحال غير الحال ..

هرناندو : لقد انكسرت الحواجز والسدود يا كونت ، واندفع طوفان الكنيسة وصخبها

إلى حيث لا يستطيع أحد أن يوقفه .. لقد أصبحت كلمة خمنيث لا رادّ لها ..

تنديا : ولكن هذا الذي يحترق قبالتنا أصبح تراثنا نحن .. أو بعبارة أدقّ .. من غنائمنا وأسلابنا .. وبدلاً من أن نضحّي به يمكن أن نوظفه للمضي قدماً إلى الأمام ..

هرناندو : يقولون إنه استثنى ثلاثمائة مصنّف في الرياضيات والطب والكيمياء لكي يسدّ بها حاجة جامعته التي أنشأها في قلعة هنارس ..

تنديا : ثلاثمائة فقط ؟

هرناندو : من بين مئات الآلاف من المصنّفات التي تتحوّل الآن قبالتنا ، إلى رماد ..

فرانسس خوسيه : (الذي يجلس إلى جوار هرناندو) رغم أن الكاردينال يعتبرني من المقرّبين إليه ، إذ عهد إليّ بتدريس الرياضيات في جامعة هنارس ، إلاّ أنني أوافقكما الرأي تماماً .. ان هذا الذي يحرقه لم يعد تراث أمة مقهورة تتعرض للتآكل والفناء يوماً بعد يوم .. ولكنه تراث الاسبان أنفسهم .. تراثنا نحن .. ولقد التمست منه أكثر من مرة أن يبقي عليه ، فقد نحتاج إليه يوماً لبناء نهضتنا العلمية المرجوّة .. لم يصغ لالتماسي .. قلت له ان بمقدوره أن يشكل لجاناً من العلماء أنفسهم لكي يقوموا بتمحيص التراث وتقرير ما الذي يجب أن يحرق وما الذي يجب أن يبقى .. فأجابني بأن هذا الأمر من شأن رجال الكنيسة وحدهم .. ولا دخل للعلماء ، ولا حتى للساسة في الموضوع .. قلت له : أفهم تماماً وجاهة رأيكم في حرق المصاحف وكتب الحديث ، بل حتى العقيدة والشريعة .. ولكن المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافيا ، وغيرها من المعارف الإنسانية ، هل ثمة ضرر ما من الإبقاء عليها ؟! ضحك بصوت عال وهو يقول : إذن ماذا تقول بشأن كتاب الموريسكي الهرطيق ابن غانم ؟ سألته : أي كتاب هذا ؟ قال وهو لا يزال على ضحكه المجلجل : (العلم النافع في صناعة المدافع) .. وبدون وعي مني ضربت يداً بيد وتنهّدت بقوة وأنا أقول له : لا أعتقد أن المسيح نفسه يوافق على عبث كهذا .. وللحظات اكتسى وجهه ملامح الغضب وحاول أن يردّ عليّ بقوة ، لكنه شكم غضبه ، وما لبث أن استعاد بشاشته وهو يقول : لولا أنني أريدك في جامعة هنارس لكان حسابي معك عسيراً !

تنديا : أخشى ما أخشاه أن يزيد هذا العمل الطائش استياء مسلمي غرناطة .. وقد يدفعهم إلى ما لا تحمد عقباه ..

هرناندو : وماذا بمقدورهم أن يفعلوا ؟ إنهم عاجزون تماماً بعد كل الذي فعله بهم الكاردينال ..

خوسيه : إنني مع الكونت .. فإن الهرّ الأعزل ، إذا أحسّ أنه محاصر تماماً ، طالت مخالبه على حين غفلة وأصبح مستعداً لتمزيق الآخرين ..

هرناندو : وقد يكون العكس تماماً .. فإن شهية الإحراق تزداد سعاراً وهي تمضي لكي تلتهم الأجساد والممتلكات ..

(ينهض الكاردينال وتنهض حاشيته ثم يغادرون المكان .. وإلى أسفل منهم يبدو ميدان باب الرملة وقد غطاه الرماد .. وصراخ الجماهير التي بدأت بالانفضاض هي الأخرى ، يشق عنان السماء).

– ستار –

المشهد الثاني الزمن : ٩٠٥هـ/١٤٩٩م

المكان " غرناطة ..
ميدان باب الرملة نفسه حيث أعدّت ساحة الإعدام تتصدّرها منصّة أكثر اتساعاً من ذي قبل ..
يرى الملك فرديناند وإلى يمينه الملكة ايزابيلا وعن شماله الكاردينال خمنيث والمحقق العام الدون ديجا ديسا ، يجلسون على مقاعد وثيرة مغطاة بالمخمل الأحمر ، وإلى جوارهم رجال الحاشية الكنسية وكبار الأمراء والقادة العسكريين .. إلى آخره ..
على أطراف الساحة يحتشد الجمهور حيث تسمع همهمات هنا وصرخات هناك .. وقبالة المنصّة نصبت مصطبة مرتفعة بعض الشيء حيث يرى عدد من رجال محاكم التحقيق وهم يروحون ويجيئون ويتحدثون إلى بعضهم ..
ترى إلى جوار المصطبة محرقة يتصاعد منها اللهب والدخان لتنفيذ حكم الإعدام حرقاً في أولئك الذين صدرت العقوبة بحقّهم .. ويقوم عليها عدد من القسس الأشداء يزيدونها اشتعالاً كلما خمدت بإضافة الحطب المتيبّس وصبّ الزيت عليه .. "

فرديناند : (للكاردينال بشيء من الارتياح) لقد رتبّتم الساحة بشكل أكثر إحكاماً من المرات السابقة ..

خمنيث : (يبتسم) تكرار التجربة يعلّم الإنسان كثيراً يا جلالة الملك ..

ايزابيلا : وكم عدد الكفرة الذين سينالهم القصاص اليوم ؟

خمنيث : ثلاثة وعشرون إذا لم تخطئني الذاكرة ..

فرديناند : هذا كثير يا كاردينال !

خمنيث : غيض من فيض يا جلالة الملك .. وأي تساهل .. أية غفلة .. أية إغماضة عين قد تعرّضنا للويل ..

فرديناند : لا أقصد هذا .. ولكن مشاغلي كثيرة .. وأحياناً ينتابني الإحساس بالقرف والملل ..

ايزابيلا : المشاغل لا تنتهي يا جلالة الملك .. وبقدر ما يتعلق الأمر بي فإنني أعتبر مناسبة كهذه فرصة لتغيير الجو والترفيه عن النفس

المحقق العام : ألستَ يا جلالة الملك من سلالة أباطرة روما العظام الذين كانوا يروّحون عن أنفسهم بحضور احتفالات المصارعة الكبرى ؟

ايزابيلا : قل لجلالة الملك !

فرديناند : (يتثاءب) الأسود الجائعة وهي تنهي مقاومة المصارع ثم تبدأ بتمزيقه ، أكثر متعة من منظر الحرق الذي يكرر نفسه مع عدد المحكوم عليهم ، والذي يصدّ نفس الإنسان أحياناً عن تناول الطعام .. إن رائحة اللحم المحترق ليست مما يسرّ ، أليس كذلك يا ديجا ؟

ديجا ديسا : ليس بالضرورة يا جلالة الملك !

خمنيث : ولكني سأريكم اليوم ، من بين المحكوم عليهم ، رجلاً له قصّة عجيبة أعتقد أنها ستسلّي جلالة الملك ..

فرديناند : (بلا اكتراث) ليس بأكثر من مرتدّ .. هرطيق يستحق القتل ..

خمنيث : هذا صحيح .. ولكن خلفيات المسألة تستحق الانتباه ..

فرديناند : (مستمراً على تثاؤبه) مثلاً ؟

ايزابيلا : دعونا من استباق الأحداث لئلا نفقد روعة المفاجأة

فرديناند : المفاجأة ؟

ايزابيلا : سنعرف في وقتها تماماً ما الذي جعل هذا الرجل أو ذاك يلقى جزاءه العادل .. إنها قصص مسلّية بكل تأكيد ..

فرديناند : ثقي يا جلالة الملكة .. كلّهم سواء ، وليس ثمة جديد في الأمر .. و ..

خمنيث : (مقاطعاً وموجهاً كلامه لايزابيلا) عذراً يا جلالة الملكة إذا وجدتني مرغماً على إعطاء بعض التفاصيل عن رجل سنشهد اليوم تنفيذ القصاص العادل به (للمحقق العام) قل لهم يا ديجا ..

ديجا ديسا : (بنفاد صبر) عندما يأتي دوره يا كاردينال سيعرفون التفاصيل الضرورية .. من هذه الناحية إنني مع جلالة الملكة .. إذ لا مبرّر لاستباق الأحداث ..

خمنيث : (متراجعاً) كما تشاءان

ديجا ديسا : فليبدأ المنادي إذن باستدعاء المحكوم عليهم فإنني أخشى أن يضيع الوقت

على جلالة الملك (يصفّق فيهرع إليه أحد القسس).

: قل للمطران بأن الوقت قد حان لإنزال القصاص بالمجرمين ..

القس : سمعاً وطاعة ..

(يرجع إلى الساحة بتأدب بالغ ثم ما يلبث المطران أن يرفع النداء)

المطران : المحكوم عليهم بالإعدام حرقاً .. إلى مصطبة التنفيذ

(يفتح باب جانبي ويخرج منه المحكومون واحداً بعد الآخر وهم مصفّدون بالأغلال وبجوارهم عدد من الحراس المسلّحين .. يقفون صفاً في موازاة المقصورة الملكية ثم ينادى على أوّلهم ..)

المطران : المجرم يونس عبد الحميد الآشي وادي

(يؤتى به إلى المصطبة)

أتريد أن تموت محمدياً كافراً أم مسيحياً كاثوليكياً ؟

يونس : (بصوت مرتفع) بل مسلماً يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله !

(يُدفع به إلى المحرقة)

المطران : المجرم عبد الرحمن بن الخطيب الخياط

(يؤتى به إلى المصطبة)

وأنت الآخر هل تريد أن تموت محمدياً كافراً أم مسيحياً كاثوليكياً ؟

عبد الرحمن : بل مسلماً يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله !

(يُدفع به إلى المحرقة)

المطران : المجرم إدريس بن عبد الله الشنتمري

(يؤتى به إلى المصطبة)

هل تريد أن تموت محمدياً كافراً أم مسيحياً كاثوليكياً ؟

إدريس : لو أحرقتم جسدي ألف مرة فإنني سأشهد في كل مرة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله

(يُدفع به إلى المحرقة)

المطران : المجرم صالح بن ياسين بن بدر

(يؤتى به إلى المصطبة)

وأنت الآخر هل تريد أن تموت محمدياً كافراً أم مسيحياً كاثوليكياً ؟

صالح : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟

المطران : (يصرخ) أجب على السؤال أيها البائس ..

صالح : وهل يعقل أن أختار الشرك والتثليث على الإيمان والتوحيد فأمت وأنا كافر .. لا والله ..

(يُدفع به إلى المحرقة)

المطران : صالح بن السائب البيّاز

(يؤتى به إلى المصطبة)

وأنت .. هل تريد أن تموت محمدياً كافراً أم مسيحياً كاثوليكياً ؟

صالح : (يشير إلى المنصّة) اسأل نيافة الكاردينال الجالس هناك إلى جوار جلالة الملك والملكة ، فلعلّه يعطيك الجواب الذي تريد ..

المطران : محاولة كسب الوقت لا تخدمك بشيء (يصرخ) أجبني ..

صالح : (متشبثاً بموقفه) لقد أعطيته كل ما يريد ، فلعلّه يشفع لي في اللحظة الأخيرة أيها المطران ..

المطران : (بغضب) نيافة الكاردينال لن يتدنّى وحاشاه من موقعه المقدس لكي يشفع لكافر مثلك !

صالح : (يرفع صوته بتوسّل محاولاً أن يبلغه للمقصورة الملكية) ..
يا نيافة الكاردينال ألم أتلقى منك الوعد بالعفو بعد أن أعطيتك كل شيء ؟ أناشدك باسم الأب والابن والروح القدس أن تبّر بوعدك ..

فرديناند : (يميل قليلاً إلى خمنيث وهو يتثاءب) من هذا الذي يشير إليك ويزعجنا بصراخه أيها الكاردينال ؟ قل للمطران أن يلحقه برفاقه فإن الوقت آخذ يضيّق علي الخناق (يلتفت إلى ايزابيلا) أليس كذلك يا صاحبة الجلالة؟

ايزابيلا : (تتثاءب هي الأخرى) بكل تأكيد يا جلالة الملك !

خمنيث : قد يكون طريفاً أن أوضّح لجلالتيكما مسألة تافهة ولكنها تستحق الاستماع ..

فرديناند : قل .. وأوجز !

خمنيث : البائس الذي يقف قبالتكم سبق وأن أعلن مسيحيّته وتبّرأ من دينه القديم .. من هذه الناحية لا غبار عليه .. لكنه حاول خداعي في مسألة أخرى..

فرديناند : وهل يملك الجرأة على ذلك ؟

خمنيث : لقد بعثت به إلى البشرات ليقنع ابنه الذي يتزعم وعدد من أصحابه ، التمرّد هناك .. بالكف عن إثارة الفتنة وإلقاء السلاح .. قلت له إنه ازاء ذلك سيحصل على العفو العام ، وستعاد إليه أملاكه وضياعه في غرناطة ..

فرديناند : (يضحك) مصيدة أخرى من مصائدك الكثيرة يا كارديناال .. ثم ما تلبث أن ترمي بتعهّداتك في صندوق القمامة ..

خمنيث : ليس إلى هذا الحدّ يا جلالة الملك !

ايزابيلا : مع الكفرة والمهرطقين ليس ثمة عهود !

خمنيث : ولكن ..

ايزابيلا : (مستمرة) لقد منحنا الرب إذناً أبدياً بنقضها لحظة تتطلّب مصالحنا العليا ذلك ..

خمنيث : هذا صحيح ، ولكن يبقى هناك هامش للوفاء يتحتم أن نحتفظ به ونحترمه، ليس من أجل القيم الزائفة التي قد تخدم الأطراف الأخرى ، ولكن من أجل مصلحتنا العليا نفسها ..

فرديناند : وماذا بشأن الرجل الذي اسميته .. اسميته .. ماذا ؟

ديجا ديسا : صالح بن السائب على ما اعتقد ..

خمنيث : لقد ذهب فعلاً إلى (البشرات) والتقى ابنه هناك ثم ما لبث أن قفل عائداً لكي يدّعي أنه بذل جهداً استثنائياً مع ابنه لإقناعه ، ولكنه لم يفلح !

ايزابيلا : مجرّد ادّعاء ليس إلاّ ..

خمنيث : على أية حال ، وكما يقول المثل ، لقد وقع الرجل في شرّ أعماله ..

فرديناند : (بنفاد صبر) كيف ؟

خمنيث : لقد أصدرنا قراراً بتجريده من أملاكه .. كان هذا هو الردّ الأوّل (ينظر إلى المحقق العام) وبعد تحقيق سريع ومحاكمة خاطفة صدر بحقه قرار التجريم .. الحكم بالإعدام حرقاً بسبب خيانته للتاج والكنيسة ..

ايزابيلا : هذا هو عين الصواب ..

فرديناند : أرني إياه عندما يدفع به إلى المحرقة فإنه ، بصراحة ، حالة استثنائية .. حالة طريفة ..

خمنيث : بكل تأكيد ، فهو يملك قدرة مدهشة على إظهار ما لا يبطن ، وكأنه أصبح بحقّ كاثوليكياً حتى النخاع .. ومع ذلك فقد يكون الرجل صادقاً في ادّعائه .. ومرة أخرى فإن الذي ساقه إلى مصرعه هو أنه لم ينفذ المهمة التي أوكلت إليه بالصدق المطلوب .. وها هنا أيضاً قد يكون في الأمر خدعة ما ، وقد لا تكون هناك خدعة على الإطلاق .. ولكننا – بصراحة – لا نريد أن نفتح على أنفسنا ثقوباً قد يتسلل منها الهواء الفاسد .. والعبرة بالنتائج وليس بالنيّات .. والذي نرسله لأداء مهمة ما

يتحتم أن ينجح فيها وإلاّ أصبح طعمة للنار (يضحك)

ايزابيلا : عجيب أمرك يا كاردينال .. يبدو أنك تملك عشرين عيناً تنظر بها إلى الأشياء وليس مجرد عينين فقط كبقية خلق الله ..

خمنيث : (بارتياح) أشكر ثقتك يا جلالة الملكة ..

ديجا ديسا : (بشيء من الغيظ) أحياناً يرى الأشياء بعيون الآخرين وتلك هي ميزة أخرى !

ايزابيلا : (غير ملتفتة إليه) أظنك يا كاردينال كنت قد ذكرت لي لدى زيارتك لقشتالة شيئاً من هذا القبيل ..

خمنيث : بالتأكيد يا جلالة الملكة .. كان يمكن أن يخدم التاج والكنيسة ومستقبل اسبانيا ولكنه .. على أية حال .. يبدو أنه كان يريد أن يمسك بالخيط من طرفيه (يبتسم بخبث)

فرديناند : أي خيط تقصد أيها الكاردينال ؟

خمنيث : (بالابتسامة نفسها) يكسبني ويكسب المتمردين معاً ، وأيهما كانت له الجولة آوى إلى ظلّه وكسب حياته ، وربما ضياعه وأملاكه .. (يمسّد على لحيته) لم يدرك البائس ، أن خمنيث لم يولد بعد ذلك الذي يمارس معه الخداع .. (يصرخ) أيها المطران .. أخرسه ولا تدعه يهذي بما لا لزوم له .. ألقه في النار ..

المطران : (يصرخ هو الآخر) حاضر يا نيافة الكاردينال

(يدفع به إلى رجاله لكي يسلموه للمحرقة)

صالح : لا حول ولا قوة إلاّ بالله ..

فرديناند : (ينهض ويهمّ بمغادرة المكان .. وتنهض الملكة بدورها) ما الذي يقوله صاحبك هذا ؟

خمنيث : إنه ينزع القناع عن وجهه بعد أن أدرك أنه لا مفرّ .. لم أعد أثق بهذا النمط من الناس يا جلالة الملك ، ولذا بدأت أميل إلى أن المحرقة هي دواؤهم الوحيد فلعلّها تطهرهم من الآثام ..

ايزابيلا : إذا سألتني فسأجيبك بأن آثامهم أكبر من أن تطهرها نيران الأرض كلّها .. فلا تضيّع وقتك معهم بأكثر مما يجب !

(تغادر المكان بصحبة الملك يتبعهما خمنيث)

خمنيث : كانت هذه حالة استثنائية وأقسم لك يا جلالة الملكة ، باسم الرب ، أنها لن تتكرر .. ولسوف ترين !

(يختفون تماماً عن الأنظار ، بينما تتردّد صرخات
المطران على المنصّة منادية على المحكوم عليهم
واحداً بعد الآخر لكي يدفع بهم إلى المحرقة)

– ستار الختام –